لعبُ الظّلّ

قصص قصيرة

عواطف محجوب

مومنت
NORTH MAG PRESS

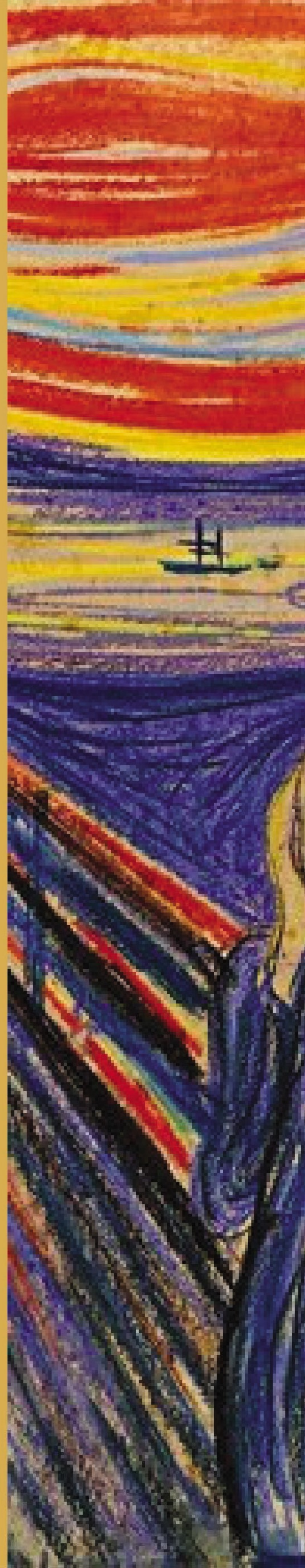

عواطف محجوب

لاعبُ الظّلّ

قصص قصيرة

مومنت™

كل الحقوق محفوظة

مومنت™

A series of books overseen by Hikmet Elhadj
All rights reserved
Moment, Books & E-books™
Copyright © 2021
www.moment4all.wordpress.com
tuniment@gmail.com
The views and opinions expressed by the author do not represent the views, beliefs or opinions of Moment Enterprises and its employees.

الغلاف: حكمت الحاج

إلى الذّين ورّطوني لأكتب مرّة
فحفرت الورق ألف مرّة

يا الله، كيف تصلح الوردة ذاتها للحبّ والجنائز، للحياة
والرّدى، لميلاد الجلاّدين وأضرحة الشّهداء؟

زاهي وهبي

لوسيفر*

هل يشتريها؟

لم يستطع فعل أيّ شيء، لا التحرّك ولا المضيّ سوى التّحديق فيها بشغف. شدّت ناظريه وملكت قلبه كأنّه لم يرَ مثلها قطّ. جذبته تلك التّفاصيل والملامح التّي فيها. هو الذّي أفنى عمره يَلْحِيه كلّما جلس وقام، أكل وشرب، نام واستيقظ. يحذّر النّاس منه قبل وبعد كلّ صلاة، لا بد من غلبته وسدّ كلّ طريق أمامه ورجمه من أجل جنّة عرضها السّماوات والأرض. فهل يشتري لوحة للشّيطان الآن؟

سدّد ثمنها وعاد رئبالا من فرط التّفكير فيها. ليس لها من مكان مناسب يعلّقها عليه سوى الجدار المقابل فوق جهاز التّلفاز، ستكون طوال الوقت في مواجهته. رنا إليها بشغف وهو لا يدري ما سرّها الذي سلب لبّه. حفظ خطوطها وتفاصيلها ودرجة كلّ لون فيها، تشرّب تلك الملامح المستقرّة فيها. غاب قليلا وعاد إلى جلسته قبالتها، أحسّ كأنّها تهتزّ وتتحرك، فرك عينيه وقام مقتربا منها بتركيز شديد لكنّه لم يلحظ شيئا، عاد إلى قعوده وبمجرد جلوسه عادت اللّوحة تهتزّ قليلا إلى الجانبين، وصوت ضحك يتجلّى صداه في المكان لا يعرف مصدره. لم يخف، لم يرتبك بل ردّد في خاطره: "الجنّ أمم مثلنا، لعلّ أحدهم أعجبته اللّوحة كما أعجبتني فأراد اللّهو معها قليلا". ونام.

استيقظ واللّوحة تطلّ عليه من عليائها، استدار نحوها مستقرّا على جنبه. طالعها بشغف فإذا به يرى صاحبها السّاكن فيها يثبّت قسرا فتاة إلى الخلفية البيضاء بيد، وبيده الأخرى يكتم صراخها، وحالما هدأت مقاومتها قليلا، انبرى يقبّلها عنوة وهي تحاول أن تشيح بوجهها عنه بينما يده تتوغّل في أنحاء جسدها. دنا الرّجل من الحائط والدّهشة تعقد لسانه فحانت نظرة من

الشّيطان إليه. توقّف الأخير عمّا يفعله، واقترب حتى ملأ رأسه الغريب إطار اللّوحة وضجّ ضاحكا ممّا جعل الرّجل يرتجّ، ثمّ أشار إليه بالاقتراب أكثر ففعل منقادا. لم يفق إلاّ والشّيطان يركله ركلة شديدة على وجهه طرحته أرضا ثم يختفي ويترك خلفه اللّوحة بياضا خاويا.

تعوّذ من الشّيطان وبسمل كعادته. دعا أن يكون من المتطهّرين التوّابين وبدأ الوضوء عند حوض الاغتسال، منحنيا قليلا. أسبغ الماء على أطرافه ثمّ استقام ورفع يديه ليمسح على رأسه. حانت منه التفاتة إلى المرآة المثبّتة أمامه مباشرة، تأمّل وجهه، رأى كأنّ تغييرا ما طرأ على ملامحه، ثمّة شيء غريب في عينيه لم يره من قبل. اشرأبّ عنقه نحو المرآة، وتوجّسٌ يغزو قلبه وعقله. شعر كأنّه يُجذب إلى عمق دوّامة لولبيّة بسرعة قصوى لا يقدر على مقاومتها، يتخبط فيها بلا هوادة وينحدر، ينحدر وينحدر حتى يسقط في اللّوحة الشّاغرة المعلّقة على حائط غرفة الجلوس. ثمّ كأنّ صعقة كهربائية أصابته، جعلته يعود إلى مكانه أمام حوض الاغتسال مترنحا.

لم يفهم ما حصل معه، وبدأ يعيد الوضوء وأطرافه ترجف. أخيرا أنزل ساقه اليسرى من الحوض لكنه لم يقدر على تجاهل المرآة أمامه أكثر. نظر مرغما إلى وجهه المنعكس وسؤال يعصف به، تلك الملامح التّي تخالط ملامحه أين يعرفها يا ترى؟ اللّعنة على هذه الذّاكرة، هذا ليس وقت مناسب تخونه فيه وهو يقف موقفا غريبا لا تفسير له. ومضى ليؤمّ الصّلاة، لكنّه قبل خروجه انعطف ونزع اللّوحة من مكانها. حملها معه وألقاها في حاوية القمامة المركونة قريبا.

لم يطلب من المصلّين سدّ الخلل وعدم ترك مجال لدخول الشّيطان كالعادة، بل انبرى مكبرا، صلّى بعجلة وانسحب لا يلوي على شيء. وجد نفسه مجددا أمام المرآة، تأمّل وجهه، تتبّع التّجاعيد، دقّق في ذلك البريق اللّامع بعمق مُقَلِه، وتساؤل واحد يتردد داخله بقوة، ملامح من هذه؟ وجزم أنّه يعرفها من قبل. أجال طرفه فيما حوله حتى وصل الحائط الذّي يقابله، اتّسعت

عيونه وقفز من شدّة الهلع وهو يرى اللّوحة معلّقة كأنّها لم تتحرّك قيد أنملة. وكمن أصابته لوثة جنون، اقتلعها بعنف من مكانها، ألقاها بقوّة أرضا وداسها بكلّ ما أوتي من إصرار، حتّى غدت بقايا نثرها بعيدا بركلة مجنونة. صفق الباب خلفه، ذهب لا يلوي على شيء والظّلام مسيطر على عقله وروحه وكلّ شيء حوله. دلف إلى بيت الصّلاة، باندفاعة مجنون، وأفرغ الرّفوف والخزانات من الكتب والمراجع، ونسخ كثيرة من القرآن، طفق يرميها يمنة فيسرة وأحيانا يمزّق بعضها ويعضّ ما استعصى على يديه. ثمّ مال، يهشّم الثّريا الكبيرة المتدلّية من السّقف، لكن ذلك لم يكفه، بل عمد إلى شفرة حلاقة وجرح يده بها. صوّر المحتويات المبعثرة، وصوّر جرحه النازف، ونشرها على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك*.

ثمّ اتّصل بالشّرطة.

توجّس حين لم يتمكّن من استعادة هاتفه الخلوي. تداعت المشاهد سريعا من ذاكرته، دروس تعليم القرآن، خلواته، محادثاته على المسنجر. لقد كان حريصا دائما فكيف يوقعه النّسيان هذه المرّة؟ ثغرة لعينة لم يفكّر فيها... غاص قلبه هلعا. حاول أن يخفي توتّره بإغماض عينيه وهو يصف ملامح أحد الذين هاجموا الجامع مؤكدا أنه لم يره بصفة واضحة فالضوء كان شاحبا وقتها. أكمل سرد تفاصيل الحادثة إلى لحظة اتصاله بالشرطة وقد أنهكه التّعب والخوف.

خرج المحقق من الغرفة وعاد سريعا يحمل لوحة، وملامح الدهشة ترتسم بوجهه ونظراته تتنقل بينها وبين الجالس قبالته. اقترب من الإمام وسأله بحسم:

– أمتأكّد أنت؟

– نعم، وأوجّه إليه أصابع الإتّهام.

– أترغب في رؤية وجهه بوضوح؟

– أتحرّق لرؤية لوسيفر شخصيا.

أدار المحقّق اللّوحة نحوه، فكادت عيناه تنبثقان من محجريهما وهو يرى وجهه فيها مرسوما بدقّة عالية.

** لوسيفر: كناية عن الشيطان.*

** في إشارة إلى حادثة جامع المرسى إذ تقدم إمام جامع عبد الرحمان بجبل الخاوي المرسى تونس فجر الجمعة 2020/02/21 لمركز الأمن لتقديم قضية عدلية تتعلق بتعرض الجامع إلى محاولة سرقة من داخله وبعثرة محتوياته من قبل مجهولين ولاذوا بالفرار وبتعمق الأبحاث اعترف الإمام بتعمده الإضرار بمحتويات الجامع بعد مغادرة المصلين بعد صلاة العشاء وقام ببعثرة الكتب والمراجع الدينية بقاعة الصلاة وتهشيم الثريا المثبتة في بيت صلاة المسجد واعترف بعودته إلى المسجد حوالي الثالثة والربع فجرا واعتدى على نفسه ثم اتصل بالعاملين في المسجد وأوهمهم بالسيناريو وتولى تنزيل صور المحتويات المبعثرة على موقع التواصل الاجتماعي من أجل تهويل الحادثة ولفت نظر السلطة إلى ضرورة تعيينه رسميا إماما وبتفتيش هاتفه تم التفطن إلى محادثة يقوم فيها بمغازلة فتاة وبالتحقيق مع الفتاة المعنية اعترفت بتحرش الإمام بها فتم فتح قضية أخر في الغرض. (الخبر كما أوردته إذاعة شمس أف أم في تاريخه).*

شارون

– أمّي أمّي ما معنى الموت؟

– الموت!

بعد صمت.

– الموت هو أن تذهب إلى الله

– أنلبس ثيابا جديدة عندها؟

– لا، لا نلبس سوى الكفن، بني لم هذه الأسئلة؟

– كفن! مممممممم

مفكرا، مضى يلهو مع أترابه وقد استحوذت فكرة معنى الموت ولباسه الأبيض على عقله. لعب شاردا حتّى إنّه انهزم في مقابلة كرة القدم على غير عادته.

– أمّي، أمي أكلّما لبسنا الأبيض نزور الله كما نزور جدّتي؟

– أعوذ بالله، ما بك يا ولد؟ عد إلى اللعب!

استلقى على سريره مفكّرا، كأنّه يقلّب كرة العالم فوق أصابع يده، بدا غائما معنى الموت أمامه. بخطوات بطيئة خفيفة، اِقترب من قنّ الدّجاج، فتح الباب بحذر ومدّ يده. كان بالقفص دجاجة وخمسة من صغارها. قبض على الأقرب إليه، ضغط جيدا. اِبتعد إلى آخر الحيّ وأُنزوى بعيدا عن الأعين.

– يا صغير، كيف أجعلك تزور الله، أتلبس الأبيض أم تنام أولا؟ صمت مفكّرا...

–لا! دقّ عنقه أولا ليموت ثم يلبس الأبيض!

انتفض الصبيّ نحو مصدر الصّوت فإذا به صديقه عليّ، الذي أردف قائلا: "رأيتك تنسحب إلى هنا كأنّك مقدم على أمر ما، فتبعتك، دعني أساعدك". وأخرج وعاءً وقارورةَ ماءٍ مشيرا "سنجعله يغرق أوّلا!". ملآ الوعاء وأمسكا الفرخ وأغرقاه. رفرف الفرخ قليلا، وبصوت مكتوم استسلم وارتخى ثمّ طفا أعلى الإناء. أخرجاه برفق ووضعاه في خرقة بيضاء لفّاه بها، ثمّ حفرا حفرة بحجمه الصّغير ودفناه.

-طلال! أرأيت، هذا هو الطّريق الوحيد لزيارة الله، إنّه بلا عودة!

أطرق طلال، مشى الهوينى مفكّرا فيما فعل في الفرخ صحبة علي، أذهب الفرخ إلى الله؟ كيف كان اللّقاء يا ترى؟ اقترب من الزّقاق الذّي يسكنه فسمع صراخا وعويلا وقد تجمهر النّاس أمام بيت عمّه. جرى متسائلا، قيل له قد مات عمّه والبركة فيه! ابتعد متفكرا... قد مات عمّي ليزور الله وهو يرتدي الأبيض، لكنّه لن يعود. طريق بلا عودة كما قال عليّ. تسلّل نحو الغرفة التي يتّم فيها تجهيز الميّت، لكنّ الكبار نهروه بعيدا: "اِذهب إلى أمّك يا ولد!". كان يحترق فضولا، ولا يجد مفرّا من الإطّلاع على أمر الموت. كان يدرك في قرارة نفسه أنّه أمر جلل، أكبر من عقله ومن حسّه، أكبر من كلّ سنوات عمره القليلة وجسده النّحيل. بقي ينتظر ولم يفهم أكثر ممّا فعله بالفرخ صحبة عليّ. بعد أيّام تسلّل ممسكا بفرخ آخر وابتعد إلى أطراف الحيّ ليفعل به ما فعل بالأول. جعله يزور الله بزيّ أبيض وقبر صغير مجاور للأول. في عشيّة ذات اليوم توفي عمدة البلدة. حاول الاندساس مقتربا نحو لغز الموت، لكن تمّ طرده فأُبتعد مسرعا على إيقاع لطم النّسوة وعويلهن. جلس مراقبا الجمع متسائلا: "إن كنّا نحبّ الله فلماذا كلّما زاره أحد من القرية تلطم عائلته وتبكي؟ ترى هل لأنّه لن يعود مرّة أخرى؟ لكنه ذهب عند الله وهذا أفضل سيعطيه كلّ ما يريد، لماذا الحزن والبكاء إذا؟ نحن نحبّ الله حقّا لكنّي لا أفهم ما يحدث، كلّ شيء يبدو متناقضا.

في أحد الصّباحات وهو جالس يفطر مع العائلة، نظر لأخته الصّغرى الجالسة بوداعة في حجر أمّه وقال: "أيّتها الصّغيرة متى تزورين الله؟ متى تلبسين الأبيض كالفراخ الصغيرة؟". حملق الكلّ مندهشا مصعوقا، ثم أمسكته أمّه توبّخه وتضربه. من بين دموع طفولته الثّائرة حكى لها ما فعل. توعّدته بالعقاب القاسي لو سرق فرخا آخر. بينما هو ينسحب إلى غرفته حانقا مصمّما على فعلها ذلك اليوم.

خلال القيلولة وحين نام كلّ من في البيت أخذ باقي الفراخ. كتم أنفاسها وخنقها، لما سكنت حركتها لفّها جميعا في لباس أبيض ودفنها في حديقة البيت تشفيّا ورجع متلصّصا على أفراد عائلته. دخل بهدوء غرفة أخته النّائمة وطرح عليها لحافا أبيض وجلس عند رأسها يتلو ما حفظ من آيات ثم تنحنح كالكبار، قال: "الله يرحمها كانت ناس طيبة!". رقّق صوته وأخذ يتباكى كالنّساء ويلطم ثمّ أُنفجر ضاحكا. أمّه انتبهت لضجّته فاقتحمت الغرفة. هالها ما رأت، متشائمة حسرت اللّحاف عن البنت النّائمة وجرّته خارجا موبخة:

– ملا فال تجيب فيه مالصباح ياخي أش سمعت؟ متقوليش كمّلت قتلت الفلالس الكلّ؟ ملا مجرم نعاني فيه![2].

– سيّبني! كي قتلك شنوّة الموت ماحبيتش تجاوب![3].

توارى باكيا وقد كبر به الحقد أكثر وتمنّى لو يحل موكب الموت قريبا منه حتى يفهم اللّغز الذّي أربك عقله الصّغير. نام على أمل مصيبة. أفاق على صوت أمّه تلعنه وتضربه: "لقد قتلتهم جميعا يا وجه الشؤم ليتك متّ مكانهم، أيها الغراب أخرج من هذا البيت!". وهجمت عليه تخنقه وتكتم نفسه. مرعوبا وبلا وعي هرب منها متخطّيا جموع النّاس التي تملأ بيتهم. تساءل عن سبب قدومهم. اِنزوى في طريق خلفيّ يراقب البيت مستغربا. ماذا حدث؟ ماذا حصل؟ يكاد يُجنّ وهو لا يجد إجابة شافية. مرّ بالقرب رجلان يتحدّثان:

-رحمهم الله، هذا سي سعيد معروف يسوق يجري برشة، قتل معاه أمو وبنتو[4].

- الله يرحمهم تقلبت بيهم الكرهبة في الواد أش لزّو يجري[5].

-الله غالب العمر وقف، والموت حضر.

صمت طلال يستوعب ما سمعه، ثم صرخ كالمجنون وجرى بلا هوادة تتلاطمه حيطان الزّقاق ويضرب رأسه حتى أدماه، وسقط مغشيّا عليه. حين أفاق كان بصره زائغا، وأخذ يهذي بكلام مبهم. كلّما مرّ به أحد أو محسن يقدّم له بعض الطّعام يسأله باكيا: "متى أزوره لقد تأخرت جدا؟ أين لباسي الأبيض". فيتعجّب من كلامه ويمضي متأسّفا. مرارا حاولت أمّه إعادته للبيت كي ترعاه لكنه يهرب صائحا مهتاجا: "أريد الأبيض! أريد الأبيض! ألبس أنا، أبي، جدّتي، الفراخ، العمدة، تأخرت جدّا". يجري بكلّ ما أوتي من أسئلة وغموض في طرقات البلدة الضيّقة يطارد شارون لعلّه يأتيه. لعله يعطيه مهلة لجنون أكبر ربّما فكك شفرة الموت.

هوامش/

** 1-شارون هو الموت في الثقافة اليونانية القديمة.*

2-من الدارجة التونسية وتعني: ما هذا الفأل السيء الذي تجلبه هذا الصباح؟ ماذا سمعت؟ لا تقل أنّك أكملت قتل باقي الفراخ الصغيرة؟ أيّ مجرم أنت؟

3-من الدارجة التونسية وتعني: اتركيني فحين سألتك عن معنى الموت لم تجيبيني!

4-من الدارجة التونسية وتعني: السيد سعيد معروف بتهوره في السياقة لقد تسبّب في قتل أمه وابنته.

5-من الدارجة التونسية وتعني: لقد انقلبت بهم السيارة في الوادي، ما الذي يدفعه إلى السرعة المفرطة هكذا؟

المهجوس

تدحرج الرّأس وغادر الدّماغ جمجمته، استقرّ في حذائه الذي صعد بين كتفيه متّخذا هيئته. مشى على رأسه كثيرا ولم يستطع التّوقّف فتورّم من شدة انحدار الطّريق. سال الدّم من أنفه وفمه، خرج قيح شديد الصّفرة من أذنيه. ونزّ الحذاء على رقبته عرقا نتِنا. حتى إذا وصل إلى الشّارع الكبير رأى كلّ النّاس تمشي على رؤوسها والكلّ يصرخ احتجاجا وألما من الظّلم الذي أجبرهم على المشي على رؤوسهم بدل أرجلهم، وقد غرق الإسفلت من فيض القيح والدم والقيء.

من وراء الجموع طيف بعيد يلوّح له. مشى ضد التّيّار، جاهد حتى لا يجرفه سيل الرّؤوس النّازفة وقد أضناها التّفكير والمشي. وصل إليه وقد هاله أنّه ينظر إلى نفسه. أشار إليه بسبّابته مصدوما. ضحك الطّيف عاليا، قال له:

– تشوّه الحذاء؟

– أنا أنت؟ آه رأسي.. تأوّه بألم.

– كثير النّسيان، عد إلى رشدك!

انسحب الطّيف مقهقها، وبقي هو مرتبكا لا يفقه ما قال له. نزعت يداه الحذاء، رماه أرضا وقفز الرّأس مجروحا يسيل قيحه فارغ الجمجمة، استقرّ في مكانه المعتاد. انتعل حذاءه فداس على الدّماغ ساحقا إيّاه ولم يشعر. فقط صمّ آذانه رنين منبّه عال قادم من بعيد كصافرة قطار لا يظهر. نظر إلى أعلى فرآه متدلّيا بلا رباط يحتلّ السّماء. أمسك رأسه ألما، حاول إيقاف الرّنين. زحفت يده نحوه لإخماد صوته، ضغط على زرّ الإيقاف. أسقطه بعيدا واستيقظ فزعا.

قام على عجل. لبس معطفه حمل قبّعته وقد ضجّ عقله بقلق مبهم هو يسترجع حلمه الغريب. نظر إلى المرآة يطالع سحنته. رأى خطوط وجهه أخاديد عميقة. التفت ليخرج فدوّت قهقهات ملأت الشّقّة. عاد إلى المرآة حائرا رأى صورته وهي تشير إليه، همس مرتبكا:

– من أنا؟

– ألا تعرف؟ أنت العدم.

– العدم؟

– لا تستغرب!

– وهذا العقل وأنا والجسد، وذاك الوجود؟

– لا يهمّ، هل تعرف من أنت؟...

– ماذا؟. مقاطعا إيّاه بنبرة غاضبة.

– لا، لا تتوهم ذاك سراب!

قهقهت صورته المنعكسة وتلاشت رويدا رويدا. تلمّس المرآة، بلّور مطليّ بارد ولا شيء غير الخواء. بحث عن نفسه، عن طيفه، عن خطوط وجهه فيها ولا أثر. نظر إلى الشّارع من النّافذة ثم فتح الباب وتهيّأ للخروج مجدّدا. وجد قبالته نسخته تقف وتردّد: "عدم يمشي على قدمين، لُمّعت الأحذية هيّا هيّا إلى الحانة."

خاف وتراجع فزعا، أحكم إغلاق الباب، جلس مرتعدا خلفه لدقائق عدّة. ثمّ دُقّ الباب، بتردّد فتح، حيّاه صاحبه وسلّمه دعوة لحضور المؤتمر السنويّ. تأمّل الورقة وصفق الباب كالمجنون، اندفع يهذي يسأل ويجيب لوحده: "مَن الرّاعي؟ الوزارة، كالعادة الوزارة، الشّيوخ والرّاقي، إنّها الثّقافة، يستحضرون ما يحفظون دون وضوء، دون وجود، هذا هو الموجود، الحال مرهون! لن أذهب إذا!".

وغادر إلى الحانة، وجده هناك منكبّا على بعض الأوراق، أمسك بخناقه وصاح فيه: "لسنا أحرارا! نحن التجّار سحرتنا الأحذية!".

بدهشة ردّ صاحبه: " نحن نسير آمنين، رويدك! ".

أردف صارخا:

– رهائن بلا عقول... أبشروا!

– بل حريّة التّعبير!

– نتانة الحبر وصلصلة المنابر... هذا هراء!

هاج وماج، انقض يكسر الكؤوس والقوارير بلا هوادة. أحاط به حرّاس الحانة وجرّوه خارجا. دفعوه بقوّة أوقعته أرضا، بصق نحوهم وقال: "وجودكم في أنوف ما تنتعلون! عبيد! ستندمون".

وبكى بشدّة...

بلّله المطر وأنهكه البرد، زادت لفحات الهواء من رعدة جسده المترهل. هشّ بيديه في كل الاتجاهات كأنّه يبعد صوته القادم من العمق، حتى كاد ينكبّ على وجهه. امتدّت أيد تسنده وتقوده تحت مظلّة أحد المحلاّت. ظلّ هناك يثرثر عن الدّراسة والثّقافة وعن فتاوى الشّيوخ والسّياسية حتّى توقّف المطر، عاد يترنّح إلى البيت، شرب شايا واستسلم للنّوم.

رأى نفسه يمشي على رأسه والقيح الأصفر يملأ فمه ويغرق أنفه، سُدّت منافذ الهواء برأسه. اختنق، انتفض، قاوم بشدّة. ثم رأى رأسه ينفجر. تناثرت جثّته أشلاء ولطّخ دمه حوائط معالم شارع الزّعيم. التقط بملقط معدنيّ لمع تحت أشعّة الشّمس نثار لحمه والتهمه بنهم. ثمّ استيقظ. قام يتقيأ، استلقى على الأريكة يأخذ نفسا من شدة الإنهاك. ببطء ارتدى ملابسه وقصد النّزل الذي يقام فيه المؤتمر.

ثرثرة الظّلال

تصدير1: إنّ التّاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق. (ابن خلدون).

تصدير2: ليس نبيّ بلا كرامة إلا في وطنه (السيد المسيح).

الظّلام يغشى كلّ شيء، والهدوء مخيّم، غطّت العاصمة في صمت أوّل اللّيل، بينما أوت الخلائق إلى أوكارها. هناك بآخر الشّارع الكبير انتصب يسوع يحرس كنيسته بجموده المعهود بينما انتصب ابن خلدون مرتديا برنسه الذّي يحميه من برد الشّتاء وصرعات الموضة الغريبة، وقد رشق نظره عند الأفق. تمطّى كلاهما في حركة لإراحة عظامهما التّي أتعبها الوقوف، فلاحظ كل واحد منهما وجود الآخر، رمقا بعضهما بدهشة كأنّهما أوّل مرّة يلتقيان وهما متجاورين من سنين كثيرة. كان يسوع منهمكا في صلواته للرّب علّه يغفر خطايا أبنائه زوّار الكنيسة، بينما جاره يحمل مقدمته ويطالع العالم كأنه يستجلي ما يحدث للعمران وتطور الإنسان والحضارة.

عند النّهار المنصرم لم يستطع يسوع الانغماس في صلاته كعادته الأزلية، فقد قطع صخب غير معتاد خلوته في عليته، وشاهد أمواجا بشرية تتلاطم في الشّارع تحته، ولافتات كبيرة مرفوعة والحناجر لا تتوقف عن الصراخ بكل ما أوتيت: "ديقاج، ديقاج، ديقاج" *.

لا يستطيع كبح جماح فضوله، لابدّ أن يستجلي الأمر لعله يشرح له جليّة الأمر. تنحنح في مكانه العالي فلم ينتبه له جاره، ناداه بصوت منخفض يكاد يكون همسا حتى لا يجرح اللّيل فقد كان الصّمت مطلقا مع حظر التّجوّل المفروض من ساعات المساء الباكرة.

_ ابن خلدون! يا ابن خلدون! أتسمعني؟

_ يسوع، ألست تصلّي؟

_ دعك من صلاتي الآن؟ ألم تسمع؟ قيل في الأرجاء قد قامت ثورة!

_ لعلّها فوضى؟

_ ثورة أو فوضى؟ ... ما تقوله هذر.

بينما صيحات بعيدة تكسر صمت الشّارع وطلقات عشواء تتوالى.

_ أتسمع صوت الرّصاص؟ أترى تلك الأسلاك الشّائكة والدبّابات؟ لقد أعلنت كل الشّاشات عن هروب الرّئيس!

_ لم أسمع شيئا يا يسوع، كنت مستغرقا في التأمّل، لكن هذا الشّارع الكبير على غير عادته مقفر من ساعات المساء الأولى، ماذا دهاهم؟ ماذا حدث؟

_ ألم أقل لك لقد قامت الثّورة!

_ثورة؟ التّغيير لا يحدث بصفة عفوية ولا يكون بعقول بسيطة.

_النّار التهمت الناس والحديد... لا رجوع يا ابن خلدون!

_ ما هكذا يكتب التّاريخ يا يسوع!

ذوّب الصدى صوت آخر الطّلقات، عاد الصّمت أشّد وطأة من غيهب ليل الشّتاء. الأسلاك الشّائكة، حظر التّجوّل، بنادق عسكرية متأهبة، هل تصنع ثورة؟ الكلّ ينتظر ليعرف ما حدث.

عاد ابن خلدون إلى تأملاته متلفّعا ببرنسه، وانغمس يسوع في هدوئه. مرّت اللّيالي هادئة بفضل حظر التّجوال، والنّهارات صاخبة بصراخ الاعتصامات التي تقطع إنتاج الشركات والمظاهرات المعطلة للدّروس والإدارات، وأحيانا تتعالى موسيقى التّظاهرات. لعلها الحريّة وممارسة بعض الحقوق، لكنها أيضا مسؤولية، فمن يتحمّل المسؤولية؟

نهار شتوي مشرق، أمواج بشرية وموسيقى وغناء وأعلام تزيّن الشّارع.. الكلّ يهتف بفخر: "تحيا تونس... تحيا الثورة".

_ يسوع! يا يسوع! أأنت هنا؟

_ دوما هنا يا ابن خلدون، ماذا تفعل طوال هذه الفترة؟ تتابع الأحداث؟ كما تراني دوما، دوما أصلّي!

_ انظر... احتفالات!

_ عيد الثورة... أمجاد وحرية!

_ أو لعلّها فوضى، لا أحد يدري إلى الآن.

_ ألا ترى؟ بين شقّ وشقّ بان شقّ، كثر الكلام والنعيق والنعيب.

_ إنّه الشّتات!

_ هناك لحى من لحى، قول ونظر في العمامة وربطة العنق! العدل يا صديقي حبس في المقدمة!

_ كل شيء تغيّر وانقلب.

_الأقوى يأكل كلّ الكعكة

_ التّضليل! والضّعيف لا حيلة له.

_ الضّعيف إما يغرق في الجهل أو في الّصلاة أو ينتهي قارئا في قطيعة مع نخبة الساسة!

_ إذا نحن الضّعفاء! كم تغيّرت المقاييس وضاعت العقول أو تاهت.

_ألا ترى شاشاتهم ماذا تفعل بالقول والعقل والرّأي؟

_ معارك ضارية تقودها الأزرار، تاريخهم أسود ولا يتغيّرون، لا يتّعظون في ما هم فيه ماضون!

_ساعدنا أيها المخّلص...

_ اللّهم إنّا نسألك السّلامة...

صمت يسوع وعبد الرحمان بن خلدون، والحزن يعتصرهما، يراقبان سير الحياة في الشّارع الكبير والنّاس أصبحت على مشارف الجنون، كأنّ العمى أصابهم وانحناءهم يزيد يوما بعد يوم. ظلاّن في أوّل الشّارع لا ينفكّان يفكّران بصمتهما الأبديّ. هل قامت ثورة أم هي مجّرد فوضى؟

ثمنا للحريّة والكرامة

"ديقاج... ديقاج... ديقاج[1]"

الصوت هادر يملأ أرجاء الشّارع الرئيسي والأنهج الفرعية للعاصمة، كلّها مكتظّة بخلق كثير طوّق وزارة الدّاخلية، تعالت شعارات الثّورة والحريّة والكرامة والخبز والديمقراطية... ديقاج للديكتاتورية. كرّ وفرّ مع قوّات الأمن، دخان القنابل المسيلة للدّموع يملأ الأرجاء في محاولات شتّى لتفريق المتظاهرين. سرعان ما تحوّل الرّصاص البلاستيكي إلى رصاص حيّ، وتتالى سقوط الشّهداء والجرحى.

سحبه التّيّار البشريّ واختلط صوته بصوت الكلّ، يداه تحملان لافتة كبيرة كتب فيها بخط عريض "انتهت اللعبة... ديقاج" استرعت انتباه قوات الأمن المرابطة أمام وزارة الداخلية، وبدأت المطاردة. توقّف لثوان يلهث، أخذ نفسا عميقا وواصل الركض، علّق اللافتة في إحدى نوافذ مبنى البريد المركزي، ركض بكل ما أوتي من قوة دون وجهة. حتّى بدأ يشعر بالتّعب، خطر بباله أن يفرّ ناحية مقبرة الجلاّز سيختبئ هناك، لكن الطّريق مازال طويلا، عليه أن يقطع شارع قرطاج بطوله حتى يصل باب عليوة ويمرّ إلى المقبرة. هدّه التعب، يكاد قلبه ينفجر. توقّف لدقيقة يسترجع نفسه ويتأكّد من مسافة الأمان بينه وبين رجال الشّرطة، لكنّه وعلى حين غرّة صرخ عاليا وسقط أرضا. لقد استقرّت رصاصة طائشة في ركبته. قاوم الإغماء، وأكمل الهروب نحو المقبرة مخلّفا وراءه خطا رقيقا من الدّم.

أخيرا لاح له محوّل باب عليوة[2]، تنفّس بعمق ليبثّ جرعة هواء جديد لقلبه ورئتيه يقاوم بها شبح الإغماء. وأكمل السّير ساحبا رجله النّازفة، غدت المسافة طويلة جدا لا تنتهي. تجاوز باب المقبرة الرئيسي، مزّق خرقة من قميصه

وربطها أعلى الإصابة ليوقف النّزف، بصعوبة بدأ يصعد التّلّة، مشى بين القبور متخفّيا بين الأشجار وقد اطمأنّ قلبه أن لا أحد يلاحقه. فقد توازنه فجأة فوقع على قبر قديم، وجد نفسه في حفرة تداريها الأشجار والحشائش. استقرّ فيها ولم يحاول الخروج، بدت مكانا ملائما للاختباء. جمد مكانه مصغيا بانتباه لكلّ حركة تمرّ بالقرب، تمطّط الزّمن لا يكاد يمضي، الظّلال لا تتحرّك، تثير توجّسه. أطلّ برأسه يستكشف فضولا، لا شيء سوى الصّمت واللّيل يرخي سدوله، ربما أعلن حظر تجول لهذا تبدو كل الأماكن القريبة قفرة. سحب نفسه ببطء، جرّ رجله المصابة، ونزل التّلّة على مهل. تسلّل يتّبع الحائط المسوّر للمقبرة. توقّف فجأة، اقشعرّ بدنه وهو يسمع صوت تكّة سلاح، جزم أنه موجه نحوه لما أصدر صوت أجشّ أمره: "توقّف مكانك". لكنّه لم يفعل بل جرّ رجله وجرى، لابدّ أن يعود حتى يتسنّى له علاج رجله فالثّورة تحتاج دعمه الإلكتروني أيضا. ملأ الأرجاء صوت طلقة رصاص استقرّت في ساقه الثّانية، صاح... سقط مغشيا.

حين أفاق وجد يديه مكبلتين إلى سرير وألم مميت في ركبتيه، نادى بصوت متعب، يريد دخول الحمّام، جاءه عسكريّ يأمره بالهدوء، توسّله كي يفكّ قيده، أخذته الشّفقة عليه فحرّره. أزاح اللّحاف يريد النزول من السّرير لكن صدمه أن يرى أطرافه مبتورة. لقد غدا بلا أرجل والأدهى من ذلك أن يكون سجين في مكان لا يعرفه. صاح... سقط مغشيا لكنّه لم يفق أبدا.

بمناسبة عيد الثّورة، قرّرت البلديّة جمع رفات شهداء الثّورة وكل من توفي فيما بعد بسبب إصابة أيّام الثّورة، وإعادة دفنهم جميعا في جزء مخصّص لهم، تقديرا لما قدّموه من تضحيات بالنّفس لهذا البلد، والسّعي من أجل تقديم تعويض مالي لأهاليهم. جال وفد البلدية في عدّة مقابر ثم جاء إلى مقبرة الجلاّز[3] يتقدمه الحارس وحفّار القبور. حاول كلاهما تذكّر من دفن إبّان الثّورة وبعدها، وظروف وفاة كل واحد منهم، وفي كل مرّة يؤشّر على القبر بدهن أحمر لمعرفتها لاحقا عند رفع الرّفات إلى القبور الجديدة التي تليق بشهداء ثورة أبهرت العالم.

توغّل الجمع في أطراف المقبرة حتى وصلوا إلى مكان قبره. أخيرا سينصفه التّاريخ سيعلن في الملإ أنّه من أبطال الثّورة، لا ضير في السّنوات القليلة التي مّرت ولم يذكر فيها اسمه ولا حدث موته أبدا.. سيصالحه الحاضر بتخليده.

توقف حفّار القبور يحك رأسه في محاولة للتّذكر، هذان القبران المتجاوران دفن صاحباهما بعد أسبوع من اندلا ع الثورة، في نفس الوقت تقريبا، وكلاهما قد أصيب بطلق ناري، وتوفّيا في نفس المستشفى. كان أحدهما مبتور الأرجل ويحمل اللاّفتة التي تناقلت صورتها وكالات الأنباء العالميّة. وأكّد الكلّ ذلك لحظة دفنه، أيهما يا ترى؟ الأسماء موجودة على الشّواهد لكنّه لا يذكر أيهما، أمّا الثّاني فحكايته غامضة غير متداولة ربما ليس ممن شارك في الثّورة أصلا، أيهما يا ترى؟ اليمين أم اليسار؟ تبا لهذه الذّاكرة التّي لا تسعف صاحبها في اللّحظات الحرجة. لا بدّ له أن يتخذ قراره الأخير ويشير إلى أحد القبرين، يحتاج إلى القليل من اليقين ليفعلها. بعد صمت طويل أشار إلى القبر الأيسر. وضعوا عليه علامة بالدهن الأحمر كآخر قبر وغادروا.

بعد فترة تم نقل الرّفات ونشرت قائمة أسماء الشهداء، طالبت الحكومة بتسليم صورهم وملفات كاملة عن عائلاتهم ووضعهم الاجتماعي. ومن يومها رابطت والدته وزوجته أمام قصر الحكومة لأيام تحملان صوره أثناء احتجاجات الثورة، حتّى تمّ طردهما وتهديدهما بالسجن، فغادرتا نحو هيئة الحقيقة والكرامة [4]. قدّمتا كلّ الأدلّة على أنّه بطل من أبطال الثّورة وأنّ الذّي نقل رفاته بجانبه ليس إلاّ ناهب المغازات ليلة هروب الرّئيس المخلوع.

هوامش/

1- كلمة من الدارجة التونسية مشتقة من أصلها الفرنسي dégage وتعني: إرحل.

2- باب عليوة أحد أبواب مدينة تونس العتيقة في الجهة الشرقية.

3- هي المقبرة الرئيسية في تونس العاصمة وتقع على المدخل الجنوبي وكان يؤدي إليها باب عليوة.

4- هيئة الحقيقة والكرامة هي الهيئة المنوط بها الإشراف على مسار العدالة الانتقالية بمختلف مراحلها بعد ثورة 14 جانفي 2011 بتونس.

هيراكليس*الرئيس

لقد مات الرئيس ...

قفز أمام المرآة يتأمّل نفسه يسبر قامته وقيافته، عدّل كتفيه ثم قهقه جذلا. لقد أصبحت رئيسا أنا الرّئيس أنا سلطانهم الأعلى، لا أنسى رؤياك ولو بعد نصف قرن من السنين، وأنت تربّتين على أصابعي بحنو، أخبرتني فرحة أنّك رأيتني والأفلاك تدور حولي، النّور يرفعني عاليا إلى ما لا نهاية، والنّجوم كلّها تتجّمع تحت قدميّ أكداسا أكداسا، والقمر ينزل إلي، يستقرّ تاجا فوق رأسي. سأكون صاحب سلطان، كم كان يجافيني النّوم، أتخيّل الكواكب والنّجوم كلّها تأتي إليّ طيّعة. رغم ذلك لا أفهم كيف أصبح سلطانا وقد ولّ عهد السلاطين.

وأُعلن عن رئيس...

غدا يتم تنصيبه. لقد تحققت رؤيا أمّه، ها هو الآن رئيس، وقد أعلن في البلاد والأرجاء أنّه الرّئيس... إنّه المجد. ابتسم للمرآة، لمس صورته على الزجاج البارد، خطا إلى الخلف، جمع قبضته وثبّتها أمام فمه كأنّها مصدح، تخيّل نفسه رئيسا خطيبا في الملإ، أنا الرّئيس قالها بتصميم، أقسم ولاء للوطن، طاعة وخدمة للشّعب وعلاقات طيّبة مع كل الدّول، ستحلّ كل المشاكل ويرغد العيش وتهنأ النّفوس. صمت قليلا يتفكر واستدرك، أحتاج جهدا عظيما وشعبا متفهما صبورا فالمسؤولية جسيمة والتكليف أمانة، وأنا قبلت حمل الأمانة حتى لا يبقى الكرسيّ شاغرا ويحصل فراغا سياسيا يودي بالبلد إلى الفوضى. لا تخف أيّها الشّعب لا تخفن أيّتها النّساء. فكلّ المواثيق محفوظة ولا نقض لأي معاهدة أو اتّفاق.

انبعث هيراكليس...

أتعرفون هيراكليس؟ لقد عاش بطلا في زمنه وها أنا هيراكليس زمني، سأقوم بكل المهام على أكمل وجه. البلد في هذه المرحلة يحتاج إلى جهدي كاملا. لقد عاد إليكم هيراكليس، ذهب رئيس وجاءكم هيراكليس. من أساطير الأوّلين آتيكم. ربط ربطة عنقه، عدّل ياقة قميصه، لوهلة ارتسم أمامه هيراكليس الحقيقي في المرآة، أخرج قبضته، أمسك خناقه ورفعه عاليا. اضطرب كفرخ خائف، رجّه يمنة فيسرة ثم أسقطه أرضا، صوّب نحوه عصاه متوعدا: "أنت الرّئيس؟". قهقه عاليا وتلاشي من المرآة. أحسّ أنّه ذوى من داخله، لا يدري لم خطر بباله زوربا اليوناني، قام يدندن ويرقص رقصته الشهيرة، قهقه ملء فمه، ترنّح يمنة ويسرة مجاراة. لا أحد فهم الحياة والموت مثله ولا أحد يمتلك حكمته في التّعامل مع الأمور، يجب أن يطبّق ما أخذه عنه.

يحيا الرّئيس...

لبس بدلته الرّسمية عدّل ربطة عنقه، تأكّد من حسن مظهره للمرّة الأخيرة. ثمّ غادر صحبة الحرس، رغم كمّ الثّقة التي خرج بها من منزله ها هو الآن ينزل مرتبكا في ساحة القصر، مشى على السّجاد الأحمر متعثرا، تنفّس الصّعداء وهو يجلس على أريكة قاعة الاستقبال الفخمة، كلّ شيء حوله يربكه، يجعل الدوّار يغشى عقله ويفسد تركيزه. ضايقه حارسه الشخصي وهو بين الفينة والأخرى ينحني عليه ويكلّمه بطريقة تحذيرية: "سيدي عدّل من جلستك، سيدي لا تسرف في الابتسام، سيّدي ضع كفيك على ركبتك لا تلق بهما كمتعب، سيدي انظر بثقة نحو عدسات التّصوير". اللّعنة، لماذا لم يقم ببروفة كي يتعلم الإتيكيت والبروتوكولات الرّئاسيّة، ويتدرّب على أن يكون رئيسا ثابتا، الرّئيس خطواته محسوبة وابتسامته فيها أنواع ولها مواقيت، حركات اليدين ليست عبثية لا بدّ أن يتحرّك ويجلس بمقاييس، الرّئيس جودة أيضا وهيبة دولة بأكملها... اللّعنة... وكال اللعنات لمسؤول التّشريفات.

أنا الرّئيس...

عليه الآن إلقاء خطاب نعي وتأبين في حقّ الرّئيس الراحل وتقديم واجب العزاء للشّعب ثم أداء القسم. دلف إلى قاعة الاجتماعات يكاد يغمى عليه، هاله مشهد مئات من آلات التّصوير مصوّبة نحوه، لمعت أضواؤها بمجرد اقترابه من المصدح وأبواق القنوات التلفزيّة ووكالات الأنباء مكدّسة على المنبر. عشرات الصحفيين ينتظرون قدومه متحفّزين بأسئلتهم الكثيرة. ارتجف قلبه جزعا، لكنّه تماسك مواسيا نفسه، أنا قويّ، أنا سلطانهم، أنا الرّئيس وكل الكواكب تبايعني ولاء وطاعة. تأخّر إلى الخلف قليلا ثمّ عاود الاقتراب من المصدح، قال كلاما كثيرا لكنّه لم يتجاوز جمجمة رأسه وحلقه، اقترب أكثر من ميكروفونات القنوات المتراصّة أمامه، تنفّس بعمق، فتح فمه جيّدا، تذّكر قواعد نطق الحروف ومخارجها، أخيرا تكلّم، لكن لم يخرج صوته مرة أخرى، صاح بأعلى ما فيه لكن صوته ارتدّ إلى حلقه.

هاج غضبا، ضرب المصادح أمامه بقبضته، فسقطت متناثرة حوله. وآلات التّصوير لا تتوقّف عن تصويره ونقل ما يحدث مباشرة. تقدّم إلى الأمام، وقف وسط القاعة بجرأة مفاجئة وصاح بشدة تكاد تجرح حلقه: "أنا الرّئيس... أنا هيراكليس". كرّر كلامه دون توقّف، لكن صوته لم يخرج من حلقه ورأسه، فقط شفاهه تتحرّك ولا يُسمع شيء ممّا يقول، مشى كالمعتوه يدور حول نفسه، تكاد عيناه تخرجان من محجريهما، وكلّ من حوله يضحك سخرية ويتساءل أهذا هو الرّئيس؟ ركز نظره على عدسات التّصوير وباعد بين رجليه ومرفقيه وصاح صيحة لو سمعها من في القاعة لسقط ميتا، لكنّها ارتدّت إلى داخله، رجته رجّا ثم سقط مكانه بلا حراك.

لقد مات الرّئيس...

** الاسم اليوناني لهرقل، وهو بطل في الميثولوجيا الإغريقية ابن الإله زيوس وألكميني، يشتهر بقوته الخارقة وله العديد من المغامرات.*

قضبان للصّدفة

أُغلقت البوّابة الحديديّة الضّخمة دونها، تنفسّت بعمق عبق الحريّة المختلط بالغبار غير مصدّقة أنّها أصبحت حرّة طليقة، أخيرا انتهى ذلك الكابوس. وقفت تتأمّل الشّارع شبه الخالي وتفكّر. دار بخلدها سؤالا وحيدا بألف صيغة طرحته على نفسها دون أدنى فكرة من أين تجد له جوابا: إلى أين ستذهبين؟ خرجت من السّجن بمصير مجهول وهيئة تثقل كاهلها كأنّها تشكّلت من العدم، كأنّها ابتلعت كلّ نفايات العالم بداخلها وها هى تصارع من أجل نقطة من النّقاء. لن تعود إلى أهلها، جزمت في قرارة نفسها، متأكّدة أنّهم صلّوا عليها صلاة الغائب، وأصبحت تراثا في نظرهم، ممنوع ذكرها أو الخوض في سيرتها. لقد جلبت العار للعائلة بدخولها السّجن ولو على سبيل الخطأ. خير لها أن تكون جثّة في قبر أو تتعفّن في زنزانة، المهمّ أن لا تعود إلى العائلة وهى موصومة بالعار ملطّخة في الوحل، فمن ذا سيرحّب بوجودها؟ من ذا يطالب بحقّها؟ هى تعرف نمط تفكيرهم الجماعيّ والفرديّ وتعرف انغلاق عقولهم وقصورها. لعنت في سرّها كلّ العائلة والأعراف الاجتماعيّة التى جعلت من المرأة مجرّد نكرة بل عورة، خطيئة لا تغتفر، مجتمع لا تطلب فيه حقّها ولا تجد حتّى من يدافع عنها. تحرّرت من سجنها وهى تنوء بتهمة كلّفتها ستّة أشهر من الزّمن وعمرا من الضّياع. كان الوقت ضحى، خرجت في زيارة لصديقتها ببيتها. وبينما كانتا تتجاذبان أطراف الحديث سمعتا دقّا عنيفا على باب الدّار الذي فُتح عنوة بركلة قويّة. وجدت نفسها وصديقتها وباقى أهل البيت محاصرين بمجموعة من القوّات الأمنية الخاصّة بمكافحة الإرهاب ملثّمين بالسّواد. انطلق معظمهم في تفتيش الغرف. وبقى ثلّة منهم عسس عليهم، صرخت الأمّ وتساءل الأب وحاولت البنت الإفلات، فجوبهوا كلّهم بالعنف بينما انزوت هي ترتعد خوفا. بعد وقت ليس بالقليل قدم أحدهم يحمل

أسلحة خفيفة كانت مخفيّة في غرفة الابن الغائب عن البيت منذ أشهر مخلّفا سيلا من الدّموع والحسرة. أُقتيدت العائلة والضّيفة إلى السّجن... دفعوها في زنزانة منفردة صغيرة قذرة عفنة، انزوت متوجّسة خائفة تلعن اللّحظة التّي ذهبت فيها لزيارة صديقتها. انكفأت تنتظر ما سيحدث لها، وقد أصاخت السّمع أين تصلها بين الفينة والأخرى أصوات قهقهات وصرخات اختلطت مع صدى الممرّ ما زاد في رعبها. بعد زمن وجدت نفسها محاطة بمجموعة من الضبّاط، اقتحموا زنزانتها الانفرادية. حاولت إفهامهم أنها كانت ضيفة وليست فردا من العائلة، أُقتيدت على وجه الخطأ. ولكن لم يهتمّ أحد بما تقول. صرخت بعنف وركلت أقربهم إليها، فأسكتتها بلطمة أردتها مغمى عليها، وحين أفاقت أسعفوها بكأس ماء شربته بلهفة ثم هوت في سواد سحيق لا شيء فيه غير أشباح مبهمة تتراقص.

مضت ساعات طويلة. رويدا رويدا بدأ يعود وعيها وتتحسّس ما حولها، انتبهت لعُريها ونزفها وتورّم أطرافها. ماذا حدث لها؟ ماذا فعلوا بها؟ فكّرت قليلا.. كأس ماء وسواد، ثمّ شهقت وبكت بحرقة.

– أفقت إذا، أيتها اللّبوة!

عويل متواصل.

– تجهّزي لفصل آخر!

انكمشت تغطّي عُريها بفزع وهي ترى ثلاثة ضبّاط يدلفون إلى زنزانتها. كبّلوها ثم تناوبوا على اغتصابها. تذكر فقط آخرهم يهمس لها قبل أن يغمى عليها: "قدمت لمتعتنا، استسلمي". بقي المشهد يتكرّر كلّ يوم، ضرب فاغتصاب على نفس الوتيرة. ساءت صحّتها وتدهورت. حملوها منهكة إلى طبيب السّجن، مهدد قلبها بالتّوقف جرّاء الإنهاك والتّشنّج. أقامت بعيادة السّجن لأيّام كثيرة، وحين بدأت صحّتها تتحسّن أعادوها إلى الزنزانة مع توصيات مؤكدة من الطّبيب بعدم الاقتراب منها أو تعذيبها، سيكون من السّهل فقدها جرّاء أبسط انتهاك تتعرض له. أشهر مرّت، وكانت تظنّ أن

جحيمها انتهى وأن عرضها ستره تجاهلهم الطويل، حتى جاءتها محقّقة، امرأة، لعلّها تتفهّم أمري. فكّرت في سرّها. أمرتها بالقيام والسّير معها. حاولت نادية التكلّم فصفعتها، منكّسة الرّأس تبعتها كراية مهزومة. أخذتها إلى حمام فاخر أين أمرتها بالاغتسال ثمّ ألبستها فستان عرس أبيض، وزيّنت وجهها بالمساحيق، حوّلتها إلى عروس ولم يبق منها سوى بقايا إنسان.

خاطبتها بجمود:

-اليوم يومك، سيزور السّجن ضابط كبير. تعاوني لتتحرّري، متأكدة من براءتك!

أرادت نادية الاعتراض فضربتها المحقّقة بقسوة وكرّرت بحزم:

-كوني متعاونة لتتحرّري!

وخرجت تاركة صدى أقدامها تتسابق مع وجيف قلب نادية. فُتح باب مكتب التّحقيق، دلف ضابط يصحبه آخر يحمل آلة تصوير. اقترب الأول وبدأ حارسه بتصوير ما يحدث دون أدنى خجل.

أفاقت نادية مسحوقة القوى تئن بضعف، وبين الفينة والأخرى تشهق ضاغطة على قلبها، لا حيلة لها سوى دموع كوت العيون، ثم نُقلت إلى المستشفى قبل أن يتوقف قلبها عن الخفقان. بقيت هناك لأيام في العناية تئنّ وتبحث عن سبيل للموت ولا تجده. اقتادها الحارس إلى المكتب مجددا، هذه المرّة لم يقترب منها أحدٌ بل أجبروها على مشاهدة فيلم مسجل، أرغموها على مشاهدة نفسها ينهشها جلاّدها بلا رحمة. شاهدت بقاياها يجتاحها ضابط سام برتبة بائسة في الإنسانية.

في مساء ذلك اليوم رموا إليها ثيابها التي جاءت بها أول مرة، صحبها الحارس وفتح لها البوّابة الحديديّة الضّخمة. خرجت، توقفت لبرهة من الزمن، استنشقت هواء الحرّية المغبرّ، تأملت الشارع الخالي، ثم مشت مرتبكة وانخرطت في التيّار البشريّ.

عرائس القصص

بآخر القرية الرّابضة بين سلسلة من الجبال الشّهباء الجرداء يقبع القصر القديم[1] بأعلى قمّة منها بطوابقه الثّلاثة ولونه التّرابيّ الباهت. قصر أثريّ لا حياة فيه سوى ماضي الأجداد الذّين سكنوه وعمروه كمخازن أو قلعة تكفيهم شرّ الأعداء. معظم غرفه لا أبواب لها وحائط من الجهة الغربية منهار جعله بعض الباحثين عن الكنوز ملاذا منه يتسلّلون لنبش أرضيات الغرف بحثا عن دهاليز مطمورة قد تحوي ذهبا. لا أحد يصعد للقصر سوى الشّيخ عدنان عرّاف وراقي البلدة، تراه كل خميس يصعد هناك ولا يعود إلى منزله بالقرية إلا عند ظهيرة يوم الجمعة. عفاف فتاة جميلة لا شيء يوحي بإصابتها بأي مرض قبل موعد زفافها بستّة أشهر، أصبح يغمى عليها ولا تفيق إلاّ بعد مرور بعض الوقت وتطوّر الأمر ليصبح ساعات بأكملها. زارت الطبيب مرّات كثيرة، لكنّه بقي محتارا لمرضها فلا أعراض لديها ولا إشارات لداء ما. في النهاية استسلم وطلب منها عدم المجيء للمستوصف لأنه عجز عن تفسير مرضها. تواصل إغماؤها، فاقترحت أمّها أخذها للشّيخ عدنان ليداويها فيده تحمّد الماء الحار وأهل القرية يشهدون بذلك. وكان الأمر. من بين سحابة من دخان البخور استقرّت نظراتها إليه، أرعبتها ملامحه. كأنّه شيطان مريد، لكن لا ضير قد يكون الشّفاء على يده. اقترب واضعا كفّه على رأسها وتلا آيات من الذّكر الحكيم وكلام متشابه وغير متشابه لكنّه مبهم. أحسّت بالإغماء ثمّ غابت عن الوعي. دنت الأمّ خائفة فأمرها بالانتظار خارجا فانسحبت صاغرة. اقترب من عفاف يشمّ عطر بشرتها ويتلمّس شفاهها بأنامله المتّسخة. وصفّر عاليا.

-تعالي يا حاجّة.

-نعم سيدي الشّيخ.

بخوف ردّت.
-ابنتك تعاني من غضب الأسياد عليها، لا شفاء لها سوى أن تمضي ليلة في غرفة القصر مقيّدة، سأدخل هناك لمحاكمتهم على أذيّتها ثم تعود سليمة معافاة.
- أحقّا هذا؟
أومأ برأسه أن نعم مؤكدا...
صباح الخميس، قادت الأمّ ابنتها مرغمة إلى القصر. أدخلها الشّيخ عدنان للغرفة الوحيدة هناك وأغلق بابها الخشبيّ العتيق. بكت البنت تترجّاها أن يُخْليا سبيلها لكنّهما لم يستمعا لرجائها بل زجراها مذكّرين إيّاها بضرورة شفائها حتى تتمكّن من الزواج لاحقا. ولم يرحماها بل قيداها إلى الحائط من يديها ووسطها وهي جالسة أرضا. انسحبت الأمّ تاركة فلذتها، وقفّة من المؤونة تكفي ليوم ونصف. وكلّها ثقة ساذجة بمعافاة ابنتها على يدي الشّيخ عدنان.

أخيرا اختلى بها.

اقترب يلثم وجهها ويشمّ عطر شعرها الأسود المنساب، مرّر الأصابع على الجسد الغضّ وأحيانا يعتصر ما ينفر عن السّطح بينما هي ترتعش، لمعرفتها بما نوى. بكت وترجّته ولم يتوقف عن هتك عرضها لكنه زجرها:

-اهدئي لأستطيع مساعدتك كي تشفي.
-اتركني...
وتعالى صراخها تطلب فكاكا منه ونجدة لا تدري من أين تأتيها. أسرع يضع على فمها وأنفها خرقة مبلّلة بمخدّر وغابت عن الوعي . عبث بها وقبّل منها ما شاء ثم زحف أكثر واخترق جدار عفّتها. هتك عرضها بل اغتصبها. ارتدى ثيابه، وملمها ثم حملها وألقى بها خارج القصر وعاد لينام في غرفة القصر متلذّذا بفتوحاته. أفاقت عفاف تحت وطأة حرارة الشّمس واهنة، تدرك أن خطبا ما أصابها وحاولت المشي فلم تقدر. جلست لتتذكر. آخر ما رأته ذلك الشّيطان يشمّها ويحاول تقبيلها وتوقّف الزّمن.. صرخت وجرت بكل

ما أوتيت من قوّة فسقطت من المسلك الضيّق إلى سفح الجبل. دقّ عنقها على الصخور فماتت. بانتظار جنازتها تهامس الكلّ بخوف ورعب:

-غضب الأسياد مربع هذه نهاية كلّ من يعترض.
-الشّيخ عدنان قال إنّها قالت كلاما بذيئا عن الأسياد.
-تستحقّ الموت لأنّها تجرّأت على الأسياد.

دُفنت ونسيها الكلّ عدا أمّها التّي بقيت تحمل وزر موتها، هي من قدّمتها للشّيخ طوعا. دؤوب هو في خدمة النّاس وشفائهم، يرقي هذا ويكتب حجابا لتلك ويحضر خلطة للعاقر وينثر الملح على المطلّقة لتتزوج كرّة أخرى. ويبقى علاجه للفتيات بذات الطّريقة، ليلة في القصر ليزول غضب الأسياد وتشفى المصابة. مرّت به كثيرات يطلبن الحظّ وقدوم النّصيب في الزّواج سريعا. عفاف وقبلها خديجة وسهام وبعدها نورة وهاجر والقائمة ما زالت مفتوحة.

تُجهّز له العروس كلّ واحدة حسب شروط الأسياد التي يمليها على أهل الفتاة. تلك ترتدي حرام أحمر^2 والأخرى فستان أبيض والتالية تلبس "حولي^2" أسود عليه "تعجيرة^2". كان حريصا جدا أن تلبس كل واحدة لباس العروس التقليدي أو العصري، لباس اليوم السابع أو ليلة الحنّة فكلّهن عرائس يزهر بهنّ القصر. يغتصبهن بشهوة عجوز كشيطان أخرس ثم يلقي بهنّ خارج القصر ويترك كلّ واحدة تواجه مصيرها إما موتا أو فضيحة أو سكوتا مشوبا بالخوف من الشّيخ عدنان.

جاءته يوما الحاجة حليمة بابنتها التي تدرس اختصاص فلسفة بالجامعة.
-البنت جنّت تقرأ علينا كلاما يشكّك في وجود الله، وتقول إنّ أصل الإنسان قرد.
-اطمئني سنرى ما بها، انتظري بجانب الباب...

لم يغم على الضحيّة الجديدة، تلا الرّقية وأعاد التلاوة ولم تغب عن الوعي كما كان مخططا له. "أيكون كفرها سببا لذلك؟". تساءل في سره. واصل الرقية ولم يغمَ عليها.

–تعالي يا حاجة، ابنتك حالتها عويصة، يسكنها شيطان كافر، لا بدّ من أخذها للقصر وتقييدها بالغرفة وضربها حتى يخرج منها، اشترط الضرب ليغادر، ألبسيها يوم الخميس لباس نوم خفيف لا شيء تحته ليسهل خروجه.

وضع في جيبه قارورة خمر وكيس مكسّرات، رافق المرأة وابنتها إلى القصر. أمرها بتقييد يدي البنت وربطها من وسطها للحائط. فعلت، ولم تحكم الرباط خوفا من إيذاء البنت. ثم أمرها بالعودة إلى بيتها. مضت متوجّسة وكادت أن تعود لإنقاذ ابنتها لكن الخوف من الشيخ منعها. انهمك يشرب الخمر ويأكل المكسّرات. تأمّلها ضاحكا وقال:

– جاء دورك أيتها الفاجرة، لطالما تمنيتك، أرأيت؟ هتكت عرض كل بنات القرية لأصل إليك، سأحاسبك اليوم. ألا ترضين بي فقط لأنّني أكبر منك بسنين وتريدين إكمال دراستك؟

تأمّلته جيّدا. يا إلهي، إنّه هو بعينه، فاروق!

أخرستها الصّدمة. وأكمل هو شربه منتشيا هاذيا بكلام غير مفهوم، فاليوم يعلن انتصاره.

في غفلة منه حرّرت يديها من القيد المرتخي، ثمّ وسطها، وجلست بلا حراك. اقترب منها يلمس وجهها ويتحسّس شفاهها وهي تشيح بوجهها فيعيده غصبا. انحنى عليها أكثر محاولا تقبيلها فدفعته بشدّة ألقت به أرضا وقامت بسرعة لتضربه بزجاجة الخمر وتهرب تاركة إيّاه مغمى عليه.

في إحدى ليالي الشّتاء القارسة، اقتاده حارس الزنزانة لتنفيذ حكم الإعدام فيه. سأله الجلاد عن أمنيته وعن آخر طلب له، فأجاب بهدوء عميق:

– اجلب لي غادة، العروس الوحيدة التي فرّت من القصر وأهانت الأسياد!

1– القصر القديم هو القصر الأثري بمنطقة قصر المرابطين التابعة لمعتمدية غمراسن من ولاية تطاوين، تونس.

2_ من اللباس التقليدي لمناطق الجنوب الشرقي بتونس.

رِقٌّ

طالعت سيّدتها في شاشة التّلفاز تبتسم بثقة وهي تقرأ نشرة الأخبار المسائيّة، أخبار النّخبة ومعدّلات النّموّ الاقتصادي، نشأة مدن صناعية جديدة وأخبار الشّارع الكبير الثّقافية ومتفرقات من هنا وهناك وحال البلد لا يستقرّ. ستعود مترنّحة تكاد تتهاوى وتركلها من أجل أن تعدّ لها فنجان قهوة يزيح غشاوة سكرها. تمتمت بألفاظ نابية تنفّس بها عن حنقها منها ومن الدّنيا والنّاس أجمعين. ثم ذهبت لتعدّ آلة تحضير القهوة ينهشها سوء المعاملة من سيدتها.

فكّرت...

إنّها تحتاج يوم إجازة، فالولد مريض وزوجها الكريه القاسي لن يعتني به بل سيضربه بشدّة إن سمع صوت بكائه. كُسر ظهرها وهي تنحني تخدم هذه السّيدة الماجنة وذاك الزّوج البغيض. كلاهما لا يعرف سوى إصدار الأوامر والويل لها إن قصّرت أو تقاعست. رجعت متأخرة تكاد تتهاوى، ركلتها لتستفيق من غفوتها. شربت قهوتها غاضبة من طلب الإجازة، وسمحت لها بيوم إجازة واحد لا غير والويل لها إن تأخّرت.

مات الولد بعد أن اشتدّت عليه الحمّى والإهمال، وهجرها زوجها الغليظ. طلّقها بعد أن باع كلّ أثاث البيت وفرّط في القطعة الذهبيّة اليتيمة التي تمتلكها وصادر هاتفها الذّكيّ. باع شقاء العمر من أجل قارورة خمر وساعة سكر عابرة. عادت إلى سيّدتها تستجير بها ملتاعة مشروخة الوجدان، كانت أملها الأخير. نعم تأخّرت في العودة، وقد أجبرتها الظّروف على الغياب. لعلّ "المدام" تتفهّم ذلك وتقدّر وقع مصابها الجلل.

بكل فضاضة وقسوة رمت إليها أغراضها وركلتها السّيّدة بكعبها العالي مبعدة إيّاها عن مدخل البيت، وصفقت الباب دونها، لا تحتاجها في الخدمة بعد

اليوم، فقد خرقت نظام البيت وزادت أيّام الإجازة من تلقاء نفسها وهذا غير مسموح. فما أقسى المرأة على المرأة حين تتلاشى العاطفة من قلبها وهي في الأصل مخلوق رؤوم. انحنت تجمع حاجياتها تمسح دمعتها وتلملم نفسها المتشظيّة. وقفت وحيدة على رصيف الحياة الخالي. وغادرت المسكينة لا تدري لها وجهة ولا أين يودي بها الحال.

في طريق زلقة ضيّقة تقدّمت شاحنة متهالكة ببطء شديد. في صندوقها الخلفيّ قبعت مع صويحباتها، رفيقات الكفاح في سبيل لقمة العيش، منسيات بين ثنايا الفقر تلفّهنّ قساوة الواقع ومرارته. الحياة ضنك والنّاس أقسى منها، لا رحمة في قلوبهم. أودت بها السّبل إلى العمل في المزارع، ليس أمامها سوى جني المحاصيل الفلاحيّة لتسدّ خلّتها مقابل أجر زهيد لا يكاد يسدّ الرّمق ولا يغطّي حاجتها. غاصت في وحل الشّقاء مواسم شتّى، تنحني لقطاف الفلفل والطّماطم، تملأ صناديق العنب، تذرو القمح في بيدره، تجني وتصفّي الزّيتون قبل عصره ضمانا لجودته. والويل لها إن لم تملأ حصّتها من الصّناديق أو وقفت لترتاح. سيُخصم من أجرها أو تفقد عملها.

يا لهذا المرار! انحناء كسر روحها قبل ظهرها وأهدر كرامتها.

الرّيح تعصف والسّماء تسحّ ماء مدرارا، كل الخلائق عادت واحتمت من العاصفة. تلفّعت الراكبات يحتمين في الخلفيّة بصناديق الخضار الفارغة درءا للبلل والشّاحنة تتقدّم بطيئة مترنّحة. في منتصف المسلك الفلاحي الضّيّق الزّلق، انهارت الأرض وتدحرجت الشّاحنة إلى هوّة الوادي. وتوفّي مع كل من كان على متنها، السّائق والعاملات البائسات. صعدت أرواحهن إلى السّماء متّخذات هيئة الطّير، حمامات بيضاوات اللّون شكلهن يخطف الأبصار. طرن في الفضاء الشاسع متساميات جميلات، تركن قبح الواقع وقسوة الحياة في الجثث التي استقرّت في عمق الوادي. قاومت الحمامات ماء المطر وطرن عاليا، قصدن بيت صاحب الأرض. رأينه يجلس إلى طاولة يزيّنها ما لذّ وطاب من المأكل وعلى ذراعيه تتمايل رفيقته الغانية وتنحني نحوه مقهقهة بلا خجل.

قادت الحمامات، اقتربن منه غير مرئيات ونقرنه مجتمعات في أمّ رأسه وابتعدن. قال الطبيب فيما بعد أنه أصيب بجلطة دماغية.

أكمل السّرب تحليقه شفافا أحيانا لا تراه عين الإنسان ومرئيا أحيانا أخرى. طاف مدنا كثيرة حتى إذا تعب من التّحليق نزل إلى نافذة أحد البيوت ليرتاح. خلف الزّجاج رأت الحمامة القائدة سيّدتها القديمة تتصدر الشّاشة وتقرأ خبرا جانبيا عن انقلاب شاحنة خفيفة بأحد المسالك النّائية التّي انزلقت جرّاء هطول الأمطار بغزارة ووفاة كل العاملات والسّائق. ابتسمت بعذوبة وودّعت المشاهدين. غضبت ونادت السّرب، وطارت تتقدمهنّ حتى بلغن منزل سيّدتها القديمة. لم تنس موقع بيتها ولن تنسى سوء معاملتها ولا السّاعات التّي أمضتها منحنية تنظف الأرض وتطبخ وتغسل، لن تنسى عذابها حتى لو ماتت. دخل السّرب من كوّة الحمّام، فدائما تتركها السيّدة مفتوحة. وحطّت الحمامات على الأريكة ينتظرن عودتها. هي تعرف عاداتها لا تغيّرها أبدا. فكل يوم ترتاد الحانة بعد أن تتصدّر شاشة أخبار الثّامنة مساء، تسهر إلى منتصف اللّيل لتعود مترنّحة تركلها من أجل فنجان قهوة ثمّ تتهاوى بسريرها تنام كالقتيل إلى منتصف النّهار لتقوم عكرة المزاج.

بآخر اللّيل عادت السيّدة مترنّحة، أيقظت خادمتها شاتمة إيّاها بأقذع السّباب لتعدّ لها فنجان قهوة. رمت حذائها ثم أرخت نفسها لتستلقي على الأريكة فطار الحمام، تفاجأت لوجوده، خافت وسقطت أرضا. اقترب منها السّرب مجتمعا، وبمناقيره الحادّة كالنّصل نقرها وجرح خدّها جرحا بليغا ترك ندبة لا تمّحي وفقأ عينها اليسرى. منعها من الظّهور على الشّاشة من ليلتها. بل انتحت مكتبا في قسم الأخبار وانحنت تصنّف وتحرّر آخر الأنباء.

الأقلّ حظّا

راقب مضيّها للعمل في الضّيعة باكرا، وتأكّد من عدم ذهاب أيّ واحدة من صاحباتها معها، تذّكر أنّه أجبرها على تعويض اليوم الذّي تغيّبت فيه ولن يرافقها أحد، ثمّ تسلّل يتبعها إلى هناك. بلغ البناء الوحيد المجاور للبئر، غرفة قديمة بلا باب قائمة في الحقل الممتدّ كمقام وليّ هجره مريديه. يعرف أنّها ستستظلّ بها لترتاح عند اشتداد الحرّ، هي لن تعود قبل الظّهيرة هكذا كان حكمه عليها، اختبأ هناك ومكث ينتظرها.

رآها تقترب من البئر وتشغّل محرّك ضخّ الماء، وانتحت أمام مدخل الغرفة لترتاح من تعب العناية بأحواض الخضر، وقد جلبت معها صفيحة مملوءة. حسرت ثيابها عن أطرافها، دلقت الماء طلبا للبرودة. راقبها تغتسل، أمتعته رؤية جلدها الأبيض البضّ، صعد الدّم حارقا إلى رأسه، قامت تطفئ المحرّك وعادت إلى الغرفة، انحنت لتنفض الحصيرة قبل أن تجلس عليها. من الخلف امتدّت يده تكتم أنفاسها وبالأخرى وضع سكينا بنحرها. انتفضت رعبا وحاولت الهرب، لكن قبضته استحكمت حولها، التصق بها أكثر، استنشق رائحة شعرها وبشرتها اليانعة. عادت تقاومه فهدّدها بالضغط أكثر على نحرها، سكنت مرغمة دامعة المآقي. طرحها أرضا، عصب عينيها بوشاحها، وجرّدها من ملابسها. اتّقد جنونه واستعرت شهوته كالنّار في الهشيم، شدّها إليه بعنف ووحشيّة، حيوان غزا كلّ شبر من جسدها دون أدنى تردّد.

تكوّمت على نفسها تنشج وشهيق بكائها لا يتوّقف، بينما جلس هو بالمدخل صامتا، ينظر إلى الأفق البعيد ولا يعيرها اهتماما. أعادها نباح الكلب إلى تيقّظها، رأته بمكانه لا يتحرّك، ببطء قامت وحملت حجرا كان مستقرا بالقرب منها تتّخذه إحدى صاحباتها كرسيّا عند استرّاحة الغداء. رفعته جيّدا،

اقتربت من الرّجل وبكلّ قوّتها رمته على رأسه من الخلف، وأسرعت في العودة. وضعت الغداء لزوجها ومضت تغتسل، علّها تزيل عارها.

لا أحد انتبه لغيابه، الكلّ متعوّد على اختفائه لأيام. اطمأنت هي لذلك، لكن رائحته كشفت موته بعد أيّام قليلة. دفنه عمّاله والكلّ شامت فيه فقد ارتاح الجميع من سيّد عمل متسلّط ظالم، وسجّل سبب وفاته سقوط من مكان مرتفع، ولفّه وشاح النسيان سريعا، فقد استلم وريثه السّانية، وعاد العمل إلى سابق الدّأب.

وضعت وليدها الأوّل الذّي انتظره زوجها طويلا، كانت متأكّدة في قرارها أنّه ليس ولده فهو عقيم. ولم تنجب غيره فيما بعد. طلّقها وأتى بزوجه ثانية، تركها تعيش معه في نفس البيت، فاغتمّت الزوجة الجديدة وبدأ الحقد ينثر سخمته عليها وعلى ولدها. كيف لا وهي تدرك أنّ الزوج لا ينجب وأنّ ضرّتها رغم ذلك أنجبت، يجب أن يكشف السرّ أمام تواطئ هذا الأخير معها. وعادت إلى عمر الولد تحسبه وتربطه بسرّ القتيل، قامت بتحريّاتها الخاصة حتّى عرفت بأمر اليوم الذّي عوّضته يوم غابت عن العمل. أخيرا فكّت اللّغز...

مضى الزّوج إلى المقهى والولد يلعب مع أولاد الجيران لا خوف عليه، بينما قصدت المرأتان السّانية، فقد بدأ موسم الحصاد والقمح وفير ولا بدّا لهما من العمل لضمان قوت العائلة كلّها. حملت الزّوجة الثانية قفّة الأكل بحرص، وغابتا في السّهل الممتدّ. الحرّ شديد ممّا أجبر كل العمّال على العودة باكرا عداهما. تأكّدت من خلوّ المكان من الخلق، وقادتها إلى ظلّ الغرفة وجلستا تعدّان الأكل. بادرتها بالسؤال عن صاحب الضيعة وكيف مات؟ نفت علمها بتفاصيل الحادثة والارتباك جعل الملعقة تسقط من يدها. استعادت الملعقة وشغلت نفسها بالأكل متجاهلة جليستها حتى لا تفتح الموضوع مجددا. بينما الأخرى اكتفت بمراقبتها "هيّا كلي أكثر، الولد لي والزّوج لي، ارحلي...".

غشيها دوّار ثمّ أغمي عليها، خبا نفسها وماتت مكانها. حملتها الضرّة وألقت بها في البئر، وعادت متسلّلة من مدخل القرية الخلفيّ.

أقسمت للجميع أنها لم ترها ولم ترافقها للحصاد أبدا، أكّدت أنّها تركتها في المنزل. بعد أيّام انتشلها الأهالي من البئر ودفنوها. يا للصدفة، قبرها مجاور لقبر السّيّد الذّي قتلته، تجاور القاتل والقتيل، الجاني والضّحيّة. وانتشر الخبر، ساكن جديد إلى المقبرة قدم. حلّ الّسلام وساد السّكون، نهض السّيّد من قبره وجلس فوقه، ضرب جانب قبرها يناديها لتقوم من مرقدها تحت التّراب. جلست فوق قبرها مثله والدّهشة تربط لسانها، وبحركة لا إراديّة سحبت كفنها تستر أطرافها، وتستعدّ للدّفاع عن نفسها إذا فكّر في الاعتداء عليها ثانية، حاورته مستنكرة:

-أما يكفيك ما فعلته بي من قبل؟

-كيف جئت إلى هنا؟

-ضرّتي الخائنة وضعت السّمّ في الطّعام.

-أرأيت؟ للعدل وجوه كثيرة...

-تساوينا، كلانا قتيل، ولكن أنا أتميّز عنك بأنّني ضحيّة فوق ذلك، جريمتك في حقّي لن تزول.

-أنت طرف فيها مثلي تماما متّهمة، لست بريئة.

-أنت مجرم!

-أنت قاتلة!

-خسيس!

-مغرية!

-مغتصِب!

-شهيّة!

-خائن!

-ممتعة!

-ألا تخجل!
-كلانا الأقلّ حظّا...

احتدّ النّقاش، اختلطت الجريمة بالعقاب، القاتل لم يعرف والمقتول يريد القصاص من الآخر.
مع أول خيوط الشروق جذبها نحوه بقوّة، قبّلها ودفعها لتعود إلى قبرها وانسحب هو إلى قبره. وصمت عميق كالموت يلفّ المكان.

كأنّه السّراب

هل رأيتم رجلا تتفتّق من أصابعه المتّسخة ببقايا أكياس الإسمنت التي ينقلها ورودا غاية في الجمال؟ هل رأيتم حماما يبني عشّه على رأس رجل لا يهدأ، رجل كأنّه يسير بجانب الحقيقة ولا يدركه أحد؟ رجل من زمن آخر وطينة أخرى غير تلك التي عجنّا منها. لا أحد يعرف كيف يبدأ نهاره، ولا كيف يبيت ليله كلّ ما أعرفه أنه فجأة يظهر وفجأة يغيب، وإن غاب عن محيّا المدينة أفتقده، إذ تعوّدت على رؤيته يقوم بدور شرطيّ المرور وأحيانا نادل مقهى يوصل الطّلبات، إنّه زهيّر مجنون مدينتنا الصغيرة. كان لزهير صديقة كلّما التقاها صافحته بحرارة ونفحته ثمن قهوة وكسكروت[1] وقرطاس قلوب[2]، ثم يوقف لها سيّارة أجرة فتمضي. حدث وان توفّيت صديقته هذه في حادث مروري فظيع ولم يعلم بالنبأ في حينه. انتظرها كعادته أمام موقف سيارات الأجرة ولم تأت. تأخّرت كثيرا، وبدا بالبكاء والصّياح، حتّى أحسّ بيد متردّدة تربّت على كتفه وصاحبها يخبره بموتها. أبدا لم أر زهيّر المجنون بتلك الحالة من الحزن...بكى كما لم يبك أحدا من قبل وجرى يقصد بيتها.

جلس يومها ساهما شاخصا كتمثال تجمّدت ملامحه بين الغضب والبكاء. ولم يتحرّك إلاّ حين رآهم يخرجون النّعش، تقدّم بخطوات واسعة، افتكّ مكانه من الأمام يحمل على كتفه ثقل الموت وقادهم نحو المقبرة. بينما جمع المشيّعين يصلّون صلاة الجنازة، تقدّم زهير من القبر المفتوح، قرفص وقبض على التّراب بكفّيه، عصره حتى لكأنّ الرائي منّا يرى زيتا أو ماء يسيل منه ويتجمّع في قرار القبر. لم نر حزنا من قبل كهذا الحزن، تأكّد لي حينها إنّ المجانين في الظّاهر بلا عقل لكنّهم قمّة في الحزن وهذا أشدّ وجوه العقل حضورا. نزل القبر موسعا بين ساقيه وعلى إيقاع تكبيرات المشيّعين حمل الجسد وهزّه يمينا وشمالا، دموعه تنسكب لامعة كالدّر وكل دمعة بحجم قطرة مطر كبيرة أو حبّة

برد.. زهير صاحب الغرائب والمعجزات دوما. توقف عن الحركة، نظر مليّا إلى موضع قدميه، ثمّ انحنى وسجّى جسد صديقته، وضع اللّحد وهال التّراب. نشيجه يتعالى لا ينقطع، ودموعه غزرت أكثر فابتلّ التّراب. غرس جريدة نخل عند الرّأس وتمتم: "نامي هانئة، لا عذاب تخافينه وقد تشرّبت دموع القلب، ستنمو حديقتك وتكتمل الجنّة".

تفتّقت من أصابعه زهورٌ جميلة غرسها فوق القبر، وطارت حمامة من رأسه بنت في لمح البصر عشّها على أقرب شجرة، وهدلت حزنا مع زهير. فجأة تراقصت القبور أمام أنظار الموجودين، تختفي حينا وتظهر حينا آخر لتصطفّ كالسّلم إلى عنان السّماء أو تتراصّ على الأرض بيضاء سوداء كآلة بيانو بورنيشها اللّامع، أو يطلع من اللاّشيء بحر يبتلعها جميعا، ومرّات أخرى يقوم من في القبور مهلّلين والزّغاريد تتعالى حول القبر الجديد فتخرج من فيه وهي ترتدي فستان زفاف. تكلّمت الأشجار المتفرّقة ورقصت على رؤوس جذورها مصفّقة بأغصانها، وشدت الطّيور في جوقة، وتحوّلت إلى عرائس بحر ثمّ اختفت بلمح البصر. كل شيء يتحرّك ثمّ يعود ليصمت كأنّ السّراب يوظّب لوحة غريبة ثم يمحوها. المشهد سرياليّ يفوق احتمال من تواجد في المقبرة فأطلق الكلّ ساقيه وهرب.

بينما بقي زهير وحيدا هناك، نام عند القبر والأزهار تهفو إليه كمن يحسن إلى يتيم. اقتربتُ منه حذرا، هززتُ كتفه قليلا أوقظه: "قم دع الكفن لأهله، انهض لم يحن النّوم بعد، دعنا نضحك من فصول الحياة الكثيرة". فتح عينيه مفزوعا وجلس، نظر إليّ وقال: "أوغاد أنتم أيّها الكتّاب، أنت فقط تحتاج تكملة لقصتك هذه، لهذا توقظني؟ لا أملك الخاتمة الآن. هيّا جد بطلا آخر يساعدك". نظر نحوي بغيظ وغادر مسرعا نحو الجبل المتاخم وقصد القمّة. تسلّلت أتبعه، لا بدّ لي من تكملة للقصة أحتاج أن أعرف الخاتمة كيف تكون وماذا سيحدث. جلس على صخرة عظيمة رفعته فوق القمّة حيث يشرف على كلّ المدينة. ثمّ وقف يحرّك يديه دائريّا في الهواء. بلحظة خرجت الرّيح من

وكرها المظلم. احتدّت ودارت هوجاء تلطم كل ما يعترضها، تكاد تحملني وزهير ثابت لا تحرّك منه سوى ملابسه الفضفاضة. وبإشارة منه همدت، لتعود قويّة مجنونة. مرّة تثير الرّمل، ومرّة تلهو بآلاف من الفراش لا أدري من أين يأتي. فجأة، أطلق قهقهات عالية صاخبة غلّفت صوت الرّيح، فهدأت وهدأ التّراب. اتّجه سرب الفراش نازلا نحو المدينة، ورائحة مسك شذيّة تضوع في شساعة المكان. وقفته تلك لم تتغيّر، طالت حتى خلته قد تجمّد تمثالا. لا بدّ أن يكمل الدّور، أؤمن أن المجانين لا ينسحبون قبل الخاتمة. فإذا به يفتح فاه فيخرج منه نور ساطع غمر المدينة فأخافُ، لأوّل مرّة أُحسّ بالخوف على أهلها القساة. اقتربت منه، أمسكت يمينه، حرّكتها ففتح عينيه وأغلق فمه، انحسر النّور وعاد كلّ شيء إلى سيرته الأولى.

نظر إلى الأفق وأشار بسبابته قائلا: "ستحترق! ستثور!". أمسكني من مرفقي وصفّر فهبّت الرّيح. طار وطيّرني معه، وأنا أتخبّط من المفاجأة والهلع. تحتنا في الأسفل رأيت ألسنة النّار تشتعل في المنازل وتتعالى فوق الأسطح، غدت المدينة جحيما لا ينطفئ. فجأة سقطتُ، غبت في الظّلام. لم أفق إلا وماء بارد ينضح وجهي وصوت بعيد جدا يناديني، يجعلني أطفو نحو اللاّشيء وأتخبط بلا هوادة وأصرخ من أعماقي: "إنّها تحترق، أطفئوا اللّهب، ستختفي المدينة!". ثبت إلى رشدي، وجدتني نائما في المقبرة تحت عريشة قبر جديد. قمت أركض في الأنهج والأزقّة وجوانب الشّارع الكبير أبحث عنه ولكن لم أجد له أثرا ولا حتى ظلاّ.

يومها وبعد وقت انتشر نبأ البوعزيزي يضرم النّار في جسده، وعمّت الفوضى أرجاء العالم.

تداول أهل المدينة جمل هذياني، فلا أدري يومها من أيقظني ولا من رشّني بالماء. فقط ها هم اليوم يمسحون رأسي بزيت الزّيتون ويقبّلون يدي تبركا. كان ظنّهم أنّني رجل نبيّ من فمي تنبع حكمة الأوّلين وأنّني تلك القبضة التي أمسكوها من زهير وغرسوها في قلب المدينة.

سرعان ما بنوا لي مقاما جعلوني فيه وليّا وهم مريدون. غافلتهم يوما وصعدت قمّة الجبل، وقفت مكان زهير، حرّكت أصابعي، جاءت الرّيح حملتني بعيدا وتركتهم خلفي يبحثون عن إله.

1- من الدارجة التونسية وتعني الوجبة الخفيفة وهي الشطيرة المحشوة.

2- من الدارجة التونسية وتعني بذور عباد الشمس ملفوف في ورق قرطاس

ماريونيت

تك... تك... تك... تك....

عادت إلى وعيها رويدا رويدا على إيقاع عدّاد ينساب منه الوقت بلا توقّف. اختلط عليها الأمر هل هو توقيت قنبلة أم ساعتها الحائطيّة؟ حملقت في الظّلام تحاول تمييز الأشياء من حولها حتى تشبّثت ببصيص نور يتسلّل من شقوق النّافذة. ها هي في سريرها بالرّكن الغربي وكلّ الأثاث في مكانه... لا شيء تغيّر ولا أيّ انفجار حدث. تلّمست وجهها متوجّسة وشعور غريب مستجدّ غزاها بكونها تحوّلت إلى ذئب. على غير العادة تملّكها الخوف، ليال كثيرة ترى نفس الحلم، شيء لا يمكن تمييز ملمسه، غامض ربما يشبه فرو أو رمل، يتحرّك ببطء على جانب وجهها وينزلق من خدّها نحو شفاهها في نسق دائري. ثم فجأة تشعر به يذوي في عقلها وبقايا نداء مبهم يتردد في أعماقها يقطعه تكبير وصوت طلقات بعيدة. يحتلّها الفراغ وسائل كبياض بيضة نيئ، يرفعها فتطفو على سطحه متماهية شفيفة معه ثم ينسكب إلى داخلها من منافذ وجهها فتختنق وتخرج من هوّة النّوم. طافية وتختنق، ماذا يعني كل هذا؟ شربت جرعة ماء، وشردت بأفكارها.

أرادت التقلّب على جانبها الآخر لتسترخي أطرافها مع أوّل غفوة نوم. لكنّها لم تحسّ بأيّ ثقل مادي ولا أيّ حركة فيزيائيّة لجسدها. دهشة نظرت تتفحّص نفسها فلم تر شيئا، فقد انعدمت الحركة، وتلاشت كلّ التّفاصيل، فقدت الإتّصال بالزمن. لكأنّ نبضها ونفسها تسرّبا من أحد الشّقوق، ولا مجال يمسحه بصرها. فقط تحفّز سمعها وتوقّد وعيها لقبول وفهم ما يصلها مهما كان مبهما غريبا. طفت شفّافة كجنين متكوّر على نفسه يسبح في مائه. ولا تسمع سوى هسهسات بعيدة وصوت النّداء يقترب منها ثمّ يتلاشى بمجرّد

أن يعلو التّكبير ويتّضح، تعقبه طلقات عشواء ثم يسود الهدوء. استغربت ما يحدث، وحاول وعيها إدراك الإطار الذي وجدت نفسها فيه. لكن بدا كلّ شيء مبهما، تشرّبت السّائل أكثر، والنّداء يقترب منها ويعلو واضحا لا يخطئه سمعها: "منى[2].. منى، ستعبرين مع الذئاب[3]، عودي إلى الأصل فآدم هو الأصل لا حواء".

بقي عقلها يكرّر ما سمعته. حرّكت رأسها على الوسادة وفي قرارها ترجّت الإله أن تحظى ولو بساعة نوم. فقد أرهقها الأرق والخوف، باتت تخشى وجودها صلب حلمها الغريب أسيرة في قفص بهيئة ذئب وشخص خفي يتحكم بها كدمية.

سبحت بعيدا في السّائل الشّفيف، وبدأت تدريجيا تحسّ بوجودها ككيان حيويّ وفطنت إلى أنّ أطرافها مغلولة بخيوط... عادت إلى الدّنيا رهينة مقيّدة. انتبهت إلى يد باردة ثقيلة تتحسّس وجهها ببطء. فتحت جفنيها بثقل واتّسع مدى بصرها. لاحت لها غرفتها بعيدة، وفي المرآة هناك برَقَ طيفُ ذئبٍ. وعلى سريرها استلقى جسدها مسجّى تحت لحافها الورديّ، وشبح رجل ينتصب بالقرب منها.

أوّل ما لمحته أرسل نحوها ذبذبات رجّتها وقلبت جسدها إلى أسفل السّرير، ثم انفجر وتناثر أشلاء هنا وهناك. نظرت ثانية إليه مصعوقة فغام كلّ شيء وأحسّت بالانحدار. ثمّ وبإشارة منه التأمت الشّظايا، تشكّل الهيكل العظميّ وكساه اللّحم ثم استقرّت في جسدها على الفراش فاقدة القدرة عن أيّ حركة. أصبحت قاب قوسين منه، فميّزت هيئته بوضوح. تأمّلته بجزع وهو يوليها بظهره، نار تشتعل من رأسه وفوقها قدر يغلي، ولسان من اللّهب يمسك بملعقة فولاذيّة ويحرّك ما فيه بلا توقّف. أحسّت بالخوف يجمّد عروقها لكنّها لم تقو على الهرب فالخيوط تتدلّى من أعلى تقيّد أطرافها. التفت إليها ثم اقترب منها والحركة في القدر لا تتوقف فوق ناره المستعرة. قهقه عاليا وفمه منفرج

كمغارة تسكنها الأشباح وقال: "نعم أعمى لكنّي لست غبيّا... ستعبرين مع الذّئاب يا منى".

لم تقدر على الكلام، لم تستوعب ملامح وجهه الغريبة الكريهة، عيناه الواسعتان بكرتيهما البيضاوتين المنبثقتين، تبدوان مريعتين فلا سواد فيهما، لقد بدا أعمى فعلا. قرأ أفكارها فردّ على سؤالها المكتوم: "من أنا؟ ربما يسمّونني الغول الأعمى أو بوقارت[4] الشّرير صاحب المصائب، لا مهرب لك منّي يا منى ولو علّقت حدوة حصان".

اغترف بيده اليسرى من القدر وسقاها منه عنوة، سائلا طعمه كالصديد قاني كالدّم لونه، أثار اشمئزازها. صرخت بكلّ ما أوتيت من قوّة لكن صرختها ارتدّت إلى أعماقها نسفت كلّ ما فيها. تلاشى الغول بسرعة البرق بينما غابت هي عن الوعي كلّ ما تذكرته بعد ذلك أنّ يد خفيّة ومن خلف ستار حرّكتها كما شاءت على إيقاع صوت لا يفتأ يردد: "الله أكبر، الله أكبر".

ألفت نفسها تمشي في شارع الزّعيم بالعاصمة بدل شارع عمر الخيّام أين يوجد مقرّ عملها في مدينتها المهمّشة المنسيّة. تأمّلت الشّارع الكبير كأنّها لأوّل مرّة تراه، قلب نابض لا تهدأ حركته. مقاهيه الكثيرة وروّادها المنهمكين في ثرثرة لا تنتهي عن تقرير الحريّات والمساواة في الإرث. تغزوه لافتات كثيرة تعلن عن أيّام دورة سّينمائية، أبطال كثر غاية في الوسامة ونساء جميلات في قمّة الإغراء. تقدمّت متجاوزة الكنيسة والمسرح البلدي ثمّ فندق القارّة السّمراء مقتربة من وزارة الدّاخلية وقد تجمّع بالقرب منها رجال الأمن والشرطة. الشّارع يغصّ بالمارّة المترجّلين وضجيج السيارات بأبواقها الزّاعقة. لم يرجعها شيء إلى إيقاع الحياة النابض حولها بل تواصلت غشاوتها. شعرت بالسّائل الشفّاف يفيض من جسدها ويجفّف عروقها، فكادت تسقط على الأرض. اقتربت من رجال الأمن بمشقّة. أشارت نحوهم تستغيث لإسعافها لكنها تهاوت في انفجار مكتوم انطلق من وسطها المفخّخ وأصاب الأقرب إليها. انمارت الخيوط التي

تأسرها، بينما تداعت جثّتها مشوهة ملقاة كجيفة، وتساقط جرحى كثيرون من حولها.

انتهى عرض الدمّى.

أجمل المسرحيات تشاهدونها قريبا في دورة جديدة من أيام قرطاج المسرحية... تابعونا.

---

1 أصل الكلمة فرنسي marionette وهي الدمية المتحركة عن طريق شخص يتحكم في حركاتها بيده أو خيوط أو أسلاك أو عصي.

2 إشارة إلى الإرهابية التي فجرت نفسها في شارع الحبيب بورقيبة يوم 29 نوفمبر 2018 وتدعى منى قبلة أصيلة المهدية.

3 إشارة إلى أسلوب "الذئاب المنفردة" الذي تتبعه التنظيمات المسلحة والإرهابية لاستقطاب أفراد ودفعهم للقيام بهجمات فردية.

4/ هو الغول في إسكتلندا، كائن خرافي خبيث يتسبب في المصائب كبيرها وصغيرها. فهو أحيانا يضع يده الباردة على وجوه الناس في الليل فتصيبهم لعنته. ويجب أن لا يُنطق باسمه حتى لا يلازم الشخص وأفراد عائلته وتقول الأسطورة أنه يمككن الاحتماء من هذه الكائنات بتعليق حدوة حصان على النافذة أو الباب.

الأخطل

ألا يملّ هؤلاء من ملاحقته؟ رجال ما انفكّوا يطاردونه دون الجميع ممّن امتلأ بهم الميدان. حين تأكّد أنهم فقدوا أثره، توقّف يسترجع أنفاسه ويشحن رئتيه هواءً والأرض تكاد تميد به، زخّات من الطّلقات تمطر الأرجاء بلا هوادة ولا يوجد ملجأ يحتمي به سوى الرّكام، واصل الرّكض ببطء وهو ينوء بحمل رشّاش ثقيل. كرّ وفرّ وصراخ حادّ لا ينتهي، أزيز أسلاك كهربائية عالية الضّغط يربك تركيزه. هذه الضّوضاء العنيفة تحطّم أعصابه، تسري فيها سريان البرق في السّماء تصعقه بموجات من الألم وتفتّت مقاومته إلى هباءات، تباطأت خطواته، تشنّجت أعصابه أكثر، تحفّزت شرايينه والدّم يتدفّق فيها بقوة وفي كلّ مفصل من مفاصله يشتعل وميض أحمر وينطفئ، وقرع طبل صاخب يكاد يدكّ صدره، فجأة ابتلع كلّ هذه الضّوضاء انفجار هائل هزّ كيانه.

اصطففت دُرف الشّباك جرّاء هبّة هواء قويّة فأيقظته وخرج من حالة الالتباس، جلس مكانه فزعا متسائلا، أحدث انفجار مسح المكان؟ وأسرع يطلّ على المدينة من الشّرفة. بدا كل شيء كعهده به، عدا علبة رأسه التّي ضجّت بأعنف الأصوات، حتّى أنّ الانفجار الذّي رآه وهو في قرار النّوم لم يتجاوز جمجمته، فقط خلّف له صداعا شديدا عصف به، رفع يديه ليدلّك جبينه بأصابعه علّ الألم يخفّ، فلم تتحرّك مفاصله كعادتها الآليّة. فوجئ بغياب أطرافه العلويّة كأنّها بترت من منبتها بينما رأسان يتأرجحان عن يمينه وعن يساره. أشاح بوجهه مشمئزّا ثم تشجّع وعاود النّظر، المنظر ذاته ولم يكن واهما، رأسان غريبان يطفوان بقربه لا يدري من أين انبثقا. تأمّلهما بمزيج من الحيرة والقرف. فطنا لنظراته المندهشة تلتهمهما فاستدارا ناحيته، قابلاه بوجهين شاحبين اتّسعت عيونهما المنطفئة وبادلاه النّظر. استرعى انتباهه الشّبه الغريب بينهما، غاص في تفاصيلهما: بقايا دماء يابسة سدّت منخريهما،

وفمّان شفاههما غليظة زرقاء انفتحت على شهقة، وخطّان دقيقان من الدّم ينزّان بلا توقّف والغريب أنّه لا يقطر على الأرض بل يظلّ معلّقا. في المجمل بدت ملامحهما خائفة، رعب قاتم سكن خطوطها. من أين أتت هذه البشاعة وأين اختفت أطرافه هكذا بدون سابق إنذار؟ قلّب الأمر كثيرا في ذهنه وما من تفسير منطقيّ لهذه الغرابة التّي اكتنفت نومه ويقظته. إحساس عدم الفهم والحيرة حمَله على التّمدد مكانه طلبا للنّوم ثانية لكنّه كان أبعد من أن يداعب أجفانه، إذ تحفّزت أسماعه تلتقط المنبّهات من الخارج، هدير السّيارات وجلبة المقاهي وموسيقى المحلاّت كلّها مدمجةٌ في لحن واحد احتلّ بيته رغم بعده. فكّر في وضع سدّادات قطنية بأذنيه علّها تحجب عنه الصّخب المجنون. قام يبحث عن القطن لكّنه اصطدم بحقيقة قصوره عن فعل أيّ شيء في غياب يديه. انقلب عجزُه إلى سُخْط وطفق يركل كلّ ما يصادفه. كزّ على أسنانه، تمنّى لو يمسك بالرّأسين ويذيبهما في قدر الطّبخ المضغوط أو يشويهما ويرميهما للكلاب... توالدت الأفكار في ذهنه وقد اكتست صبغة إجرامية أخافته، إذ يمكن أن يكون إرهابيّ قاتل نائم بداخله فيستيقظ. أخمد خواطره مرغما وركّز على الضّجيج الذّي يصله حادّا كأنّه في خضمّه. ونظراته غائمة لا تحول عن الرّأسين الطّافيين قربه. ارتفع صوته الدّاخليّ يحدّثه بأنّ تعدّد رؤوسه يزيد من حدّة حواسّه ويضاعف مقدرتها. ومن الطّبيعيّ أن يسمعَ أبعد الأصوات ويلتقطَ أضعَفها، ولا غرابة إن أنصت إلى الصّمت. أصاخ السّمع، وكذلك فعل رأساه إذ مال كلّ واحد منهما إلى جهة وركّزا معه: هذا سائق سيّارة الأجرة ينادي لوجهته في المحطّة، وهذا بائع الآلات المنزليّة يُشهر بضاعته المقلّدة على أنّها أصليّة، عسل حر! عسل حر! بالتّأكيد هذا الشّيخ عبد الله يمدح عسله المغشوش. أعجبته لعبة الأصوات هذه فمضى يحفّز أسماعه إلى مسافات أبعد، تناهى إليه صوت امرأة عجوز توبّخ ابنها على سهره ومعاقرته الخمرة، يزعجها أن يمضي النّهار نائما وشخيره يملأ الدّار. في ركن آخر تعالى خصام محتدم بين زوجين وليس ببعيد تصاعدت آهات وشهقات شبقة. أصابه

الخجل لتلصّصه فعدّل طاقته نحو حاسّة البصر، لم لا يجرّب الوصول إلى تفاصيل دقيقة تخفيها تجاعيد العالم؟

اتّكأ جوار النّافذة فاقتدى به الرأسان يستطلعان معه الفضاء المشرع أمامه، جبل موحش يقابله على خط الأفق. سرّح بصره في تلافيف الجبل، التقط حركة لا يمكن أن تخطئها العيون السّتة، ظلال تتحرّك وتستتر بجذوع الأشجار وتقترب من قطيع يرعى في السّفح. تفرّس في الأشباح علّه يظفر برؤية ملامحها إذ بدت الوجوهُ ملثّمة، والأجساد مكسوّة بثياب تماهت ألوانها مع الطبيعة بالكاد يميّزها. لعلهم ينوون سرقة القطيع، خمّن بقلق، تأرجح الرأسان وبصوت واحد هتفا كأنّهما يجيبانه: "الذّئاب المنفردة غادرة، عيونها تنذر بالقتل". لم يدرك ما قصدا بذلك ولم يحاول الفهم، أشاح عنهما وأطلق عنان نظره يقفز بين الشرفات والنوافذ، هذه سيدة تنشر الغسيل، وأخرى تقطف رأسا من الثوم المعلّق، وذاك مسترخ أمام التلفاز وآخر يطالع كتابا، وعلى تخوم المنازل البعيدة رأى مجموعة من الشباب ينسحبون نحو الخلاء وأحدهم يحمل كيسا أسود، حتما هناك جلسة خمر بين الأشجار، عرّج على المقاهي، مكتظةٌ كالعادة وعدد الروّاد يتضاعف بسرعة، والكلّ مشغول بالحديث ولعب الورق أو منغمس مع هاتفه... يا لهذه النّوافذ المشرعة من الحياة. تنهّد واستلقى على الأريكة، رويدا رويدا تلاشت الصّور وخفتت الأصوات في رأسه حتّى غفا.

تقافز الرأسان فوقه يقاومان استسلامه للنوم، يريدان مزيدا من المرح لكنّ سلطان الكرى كان أقوى، وسقط في قرار النوم. عادت الضّوضاء الصّاخبة تحتلّ مساحات رقاده والأضواء الحمراء تومض بشدّة. أمَره عقله بالهرب من هذا الجنون، تأهّب للرّكض لكن كمّية هائلة من الرّكام ردمته وقطعت نفسه. أفاق وصراخه الهستيري يملأ المكان، اهتزّ الرأسان جواره يضحكان سخرية منه. حرّك أقدامه يريد ركلهما لكنّه لم يطلهما بينما قهقاهما لا تتوقف. التجأ إلى رأسه علّه يصيبهما فتلقّى الحائطُ ضرباته وكاد يشجّه، كانا يجيدان تفاديه وهما طافيان. تمنّى لو يُغرق رأسه في الماء ليطفئ نيران غضبه، أنّى له ذلك وهو

عديم الأطراف، غير أنّه استمات في فتح صنبور المياه ليشرب ويهدّئ ضجيج أمعائه المهتاجة من شدّة الجوع.

لم تسترخ ملامحُه المتجهّمةُ ولا غادره شعورُه بالقلق والخوف، يجب أن يهرب من هذه الأجواء الكئيبة. حاول ارتداء معطفه فلم يفلح، بأسى عاين كمّي قميصه الفارغين يحاذيهما الرأسان طافيان لا يسقطان أبدا. كيف يمكنه أن يواريهما عن الأنظار ونفسه تتوق إلى الخروج الآن، لا يريد أن يلفت الأنظار إليه، ولا بثّ الرّعب في كلّ من يلاقيه. بعد تفكير اهتدى إلى أن يرتدي برنسا كونه فضفاضا ويقدر على مواراة الرّأسين بسهولة. بفمه فتح الصّندوق الخشبيّ العتيق، انحنى بجذعه داخله وقلّب الثّياب التّقليدية التّي ورثها عن والده، عثر على البرنس، عضّ عليه بأسنانه ورفعه، جاهد لينفض عنه رائحة عطن السّنين وخزّ الصّوف الذّي عشّش فيه، ثم علّقه منسدلا على المشجب. حشر نفسه بين تلابيبه وانحنى قليلا حتّى إذا وجده مقابلا بدقّة لكتفيه استقام ليستقرّ البرنس فوقهما ولفّه إلى ما تحت رُكبتيه، وحرص على التقاء طرفيه من الأمام وتأكّد من اختفاء الرأسّين تحته اللّذين اكتفيا بإطلاق ضحكات سمجة أغاظته، سحب قفلَ الباب بفمه وخرج.

سيجلس قليلا في المقهى ثم يقصد المطعم ليتعشّى، فطوال يوم كامل لم يأكل شيئا بعدها سيشتري ما ينقصه من البقالة وأخيرا سيتمشى قليلا قبل أن يعود أدراجه إلى البيت. لم تتجاوز أفكاره قشرة دماغه لكنّه فوجئ بالرّأسين يهتزّان تحت البرنس ويهتفان بصوت واحد: "أخيرا سنأكل! مرحى سنتجول!". هُتافهما ذكّره بحقيقة أنّه لا يستطيع فعل شيء ممّا فكّر فيه طالما أنّ هذين الغرابين يرافقانه. وصل المقهى والتردّد يكبّله، جال طرفُه في المكان المكتظِّ، حزم أمره ودلف، انتحى الطّاولةَ الوحيدةَ الشّاغرةَ في زاوية بعيدة وجلس موليا دبره للرّوّاد. طلب قهوة وعقله لا يبرحه التفكير في كيفية استعادة يديه حتّى جاء فنجان القهوة، أحنى رأسه ليأخذ رشفة منه فإذا به يرى الرّأسين وقد قفزا فوق الطّاولة وتزاحما بشدّة كلّ منهما يريد احتساء القهوة أوّلا. نهرهما محاذرا

أن يرفع صوته بيد أنّهما لم يتوقّفا بل صاحا وأطلقا سيلا من السّباب والشّتائم، فأحدثا جلبة في المكان جلبت إليه الأنظار، منظر مرعب قابل الرّواد، رأسان شاحبان منكوش شعرهما ملامحهما منطفئة ينزان دما ويصرخان. الدّهشة أربكت الجميع وربطت ألسنتهم، تشجّع النّادل ووقف في المنتصف وأشار ناحيته صائحا: "إرهابي قاطع الرّؤوس، رأيته يمزج دماءها بالقهوة".

لم يكن أمامه من مخرج سوى النّافذة. ارتكز على يديه بقوّة وقفز منها. أطلق ساقيه للرّيح وجمع غفير من الرّجال يطاردونه بينما طفا الرأسان لوحدهما في المقهى أمام شاشة التلفاز يشاهدان مذيع نشرة الأخبار يسرد خبرا بكل أسف: إرهابيون يذبحون راعي الأغنام السلطاني للمرّة الثّانية في سفح جبل... صرخ الرّأسان رعبا، وسقطا على الأرض هامدين.

القونة*

اللّيل ستار فاحم اللّون يخفي تحرّكات الشّاحنة على مشارف سلسلة من الصّخور. وهدير الموج يذيب صوت المحرّك. ونحن متكدّسون فوق بعضنا في صندوقها الخلفيّ. نزلنا حذرين، وتسلّلنا وراء بعضنا، والهواء الرّطب المختلط بالملوحة وصوت تلاطم الأمواج يبعث فينا رهبة غير معتادة، ربّما لأنّنا نجوس المكان لأوّل مرّة في مغامرة غير مضمونة. انتظم وجيف القلوب مع حركة التّنفّس المتسارعة بسبب الخوف ووعورة المسلك. صعدنا وانحدرنا حتّى وصلنا إلى الشّاطئ، الرّمال ناعمة تغوص فيها الأحذية وقد تباطأت الخطوات. سَرت في الأجساد قشعريرة حفّزت كلّ الحواسّ وفتحت مسام الجلود تأهبا وقلقا من الغموض الذّي يقودنا نحو المجهول. وهمهمات تتصاعد من هنا وهناك. أمرنا "غزال[2]" بالاستمرار في المشي بصمت والحذر الحذر، وركلاته تعالج قفا كل من تباطأ أو تعثّر في خطوه. دلفنا إلى بناء خرب أُقتلعت أبوابه ونوافذه وبقيت الحوائط فاغرة للرّيح والأوساخ، ينيره ضوء شاحب. تقدّمنا وأكتافنا تتدافع مع كلّ حركة، فعددنا كبير أمام ضيق الممرّ. ولا يجرؤ أحد على كسر الصّمت سوى وقع خطونا الرّتيب، بينما "غزال" ذهب مولّيا من حيث أتينا.

"قف هنا!"، قويّة وصلتنا من آخر الممرّ بثّت فينا الخوف مجدّدا بعد أن كاد يتلاشى. توقّفنا مرتبكين وجلين وقد ربط على أفواهنا، فانطلق السّمع والبصر يتساءل ناحية الصّوت الخشن، جفّت الحناجر وتسارع إيقاع القلوب. اقترب منّا صاحب الصوّت مهدّدا: "الأولى بكم أن تلتزموا بالأوامر والصّمت حتى تغادروا!". طأطأنا الرؤوس إيجابا لكأنّنا عبيد في سوق النّخاسة. إلى يسار الممرّ أمرنا بالدّخول وهو يصادر هواتفنا النّقالة ويستخلص من كلّ واحد مائة دينارا ثمن الإيواء والطّعام. استقبلتنا رائحة العفن ممزوجة بنتانة الأحذية العطنة والفساء. أزواج كثيرة من العيون تحملق فينا مكدودة كأنّ الموت يطبق على

أصحابها فاتّسعت من الهول، وابتسامات صفراء مرحّبة سرعان ما ذوت من الوجوه مخلّفة تجاعيد الهمّ والخوف. وأسرع كلّ واحد منّا ينتحي مكانا.

جلست في ركن منه يقابلني كلّ من في الغرفة، تعوّدت على الّنظر تحت النّور الشّاحب وميّزت الوجوه بتفاصيلها. لاحت لي مجموعة من السّمر اليافعين يشي سوادهم بطريقهم التي تخطّت أقاصي إفريقيا، بنغاليون ومغاربة ومصريون تمازجت لهجاتهم بطريقة مضحكة وتهامس كلّ واحد منهم مع جليسه الذي يجانبه. توحّدنا تحت سقف الفاقة والحاجة والتّهميش – ببساطة– لقد تجاوزتنا الحياة. لكزني الجالس عن يميني قائلا بخفوت: "خالد! خالد! يبدو الأمر مستحيلا، لنعد! ألا ترى تلك الأعداد الهائلة، كلّ الغرف مكتظّة كهذه وأكثر. فهل يسعنا مركب واحد مهما كانت حمولته كبيرة؟". تأمّلته، صوته يرتعش وحركة أنامله متوتّرة لا تستقرّ. ربّتُ على كتفه ثم ضغطتُ على أصابعه مشجّعا إيّاه بهمس: "لقد مات القلب، نحن في منتصف المجازفة ولن أعود! لا طعم للحياة إن لم يخالطها مذاق الخطر...".

اشتعل ضوء قدّاحة قطع حديثي، فأنيرت الغرفة أكثر وانكشف بوضوح الوجه الثاني للإنسان، ذاك الوجه التّعيس المختبئ في كهوف الفقر والنّسيان. وسرعان ما ملأت الأنوف رائحة تبغ استشرت سريعا في المكان.

فجأة فُتح الباب بقوّة ودخل صاحب الصّوت الخشن يرطن غاضبا مزمجرا يلوّح عاليا بسوط انهال يضرب به كلّ من في الغرفة بلا هوادة: "ممنوع الكلام! ممنوع التّدخين، مفهوم!". انطوى الجميع وانكفأ كلّ على نفسه كالمتعبّد المعتكف. وساد سكون الخوف والانتظار.

من الرّكن المقابل تعالى نشيج كسر الصّمت، نظر الكلّ باستنكار إلى صاحبه وترجّاه الذّي بجانبه أن يكفّ عن البكاء حتى لا يسمعه من في الخارج وتسوء الأمور أكثر. لكنّه لم يسمع لأيّ أحد منهم بل علا نحيبه أكثر تحوّل صراخا، تارة ينادي أمّه وطورا يستغيث بسيّده الوليّ الصّالح عبد القادر حتى يخرجه من المأزق الذّي هو فيه وأخرى ينادي بأسماء لا أدري أأصحابها أحياء أم أموات.

ارتعش صوته وانتفضت أطرافه كأنه أصيب بنوبة صرع. أسرع الكلّ لنجدته ومضى أحدهم ينادي أحد القائمين على أمر القونة.

جاء ومعه بضع رجال....

وقف بقامته الضّخمة يسدّ مدخل الباب، على كتفه رشّاش صوّبه نحو كلّ من في الغرفة وأطلق الرّصاص بلا هوادة، كأنّه يلعب لعبة تصويب إلكترونية لا تقيّدها ضوابط. رأيت الجثث مثقوبة رؤوسها وصدورها، تتهاوى على الأرض، يصدر أصحابها شهقة الموت الأخيرة ثمّ تستقرّ بلا حراك. صدمني هول المنظر وبشاعته. غامت الدّنيا أمام ناظريّ وهويت في الظّلام فاقد الوعي، كأنّني جثة هامدة تكوّمت مع باقي الجثث. حين أفقت وجدت حملا ثقيلا يرزح تحته صدري يكاد يقطع نفسي. وقد لاحت تباشير الصّباح الأولى من ثنايا اللّيل، حملقت فيما حولي وحاولت التحرّك من مكاني فعجزت، رفعت رأسي قليلا والألم يكاد يفقدني وعيي ثانية. عدد من الجثث تكوّمت هنا وهناك وبعضها فوقي، الدّم ينزّ منها والذّباب يحوم حولها تجذبه الروائح العطنة القويّة. سحبت نفسي بمشقّة حتى جلست وقد تيبّست أطرافي وجمد قلبي من بشاعة المنظر. وجدت أشخاصا آخرين جالسين قرب المدخل بتأهّب، حين رأوني أسرعوا نحوي قدّموا لي بعضا من الطعام وشربة ماء ثمّ ألبسوني سترة نجاة، وطلبوا منّي التّأهّب فقد أوشك المركب على الوصول.

غادرت معهم القونة إلى الشّاطئ ثمّ ركبنا زورقا تقدّم بنا في عرض البحر حتّى وصلنا مركبا كان بالانتظار. في مقدمته وقف القبطان يشير بيديه إلى صاحب الزّورق الذي يرافقنا بإشارات مبهمة، في حين تقدّم الجميع يتزاحمون كلّ يريد الوصول أوّلا. على حين غرّة ترنّح الزورق يمنة ويسرة فتساقط الكلّ فوق بعضهم البعض وانزلق عدد منّا ووقعوا في الماء. وكما أراد القبطان نقصت الحمولة واستقرت الحركة. امتدت يد ريّسنا عاليا مؤكدا بسبابته أن المهمة أنجزت وبات الأمر تحت السيطرة.

حينها مُدّ جسر صغير بين المركب والزّورق لمرور من تبقّى. اشتدّ بي دوار البحر، وأنا أجتاز مسافة الجسر المعلّق، أغمي عليّ وسقطت في الماء.

1-القونة: بناء يوجد على الشاطئ دائما ما يكون قصيا عن الأنظار يجتمع فيه الحراقة قبل التسلل عبر البحر باتجاه أوروبا.

2-غزال: كنية، اتخذها الشخص الوسيط بين الحراقة وصاحب المركب إخفاءً لهويته الحقيقية.

البرزخ

ليس هناك أي احتمال للخطر، في هدأة اللّيل وظلمته، تهادت تيامات[1] في أرجاء البحر تغنّي بصوتها الشّجيّ، تلتفت يمنة ويسرة وتمسح ببصرها المياه الممتدّة، السّكون وصوت الأمواج المتواترة برقّة ولا شيء مريب. تثاءبت وغطست تحت الماء، نزلت إلى مستقرّها في الأعماق مطمئنّة، لن يتعكّر صفو ليلها ما دام مردوخ[2] بعيدا عن حدودها. وجذوة الحرب تكاد تنطفئ بينهما. أوكلت مهمّة المراقبة للنّجوم السّاهرة، وغفت على هسهسة الطّحالب وإيقاعات الدّلافين.

عندئذ تقدّم مركب مستتر هيكله بالماء والظّلام، لا يمكن تمييز ما فيه سوى أزواجا من الأعين تنظر في كل الاتجاهات، لا تستقرّ في محاجرها. فجأة سطع ضوء كشّاف قويّ بالقرب، فزع كلّ من في المركب وهاجوا خوفا من أنّ قوّات الأمن أدركتهم، فتساقطت الأجساد فوق بعضها وتكوّمت، كأنها حشرت فيه حشرا. صرخ فيهم "الريّس" يطلب منهم الصّمت مهددا إيّاهم بالإلقاء في اليمّ وأفهمهم أنّ هذا الضّوء صادر من مركب صديق يقطع المياه مثلهم نحو أرض الخلاص الجنّة الموعودة. وجم الجميع وزاغت الأعين باتجاه اللاّشيء وتحفّزت الآذان وجلا.

رزح المركب بحمولته الزّائدة، فأصدرت ألواحه طقطقات متتالية وتباطأ تقدّمه إلى عرض البحر، حتى أنّ أضواء الجزيرة[3] مازالت تلوح وراءهم. قطع لغط وحركة مفاجئة السّكون في عمق المركب، اتّضح بأن الماء يتسرّب إليه والكلّ مهددّ بالغرق. المصير مجهول والتوجّس شحن الأجواء، لكنّ "الريّس" عنّفهم، وأمرهم بالعمل على إفراغ ما تسرّب. تجنّد الكلّ للعمل لكن لم يجدي ذلك نفعا ومستوى الماء لم ينقص، بل غمر الجلوس منهم. فتباطأ المركب.

هوت القلوب والأعين ترى الماء يغزو المركب ويثقله يكاد يمنعه عن السّير. وقائده يحاول التقدم به والزّيادة من سرعته حاثاّ "الحرّاقة"[4] على الإسراع بإفراغ ما تسرّب. فاشتدّت حركة السّواعد جيئة وذهابا. المركب يترنّح حتّى إذا اعترضته موجة قويّة أعلى منه دفعته نحو لجّة لطمته. فتمايل على الجانبين بشدّة. ثمّ انقلب بمن فيه وتناثرت الأجساد كالشّظايا على وجه البحر المتجعد بالأمواج. تعالى الصّراخ فزعا وطلبا للنجدةّ. كأنّ الزّمن توقّف. فحشرجت حناجر يخنقها الماء وارتفعت أصوات تقاوم الغرق والملح. وبين هنيهة وأخرى يختفي عدد من "الحرّاقة" يبتلعهم البحر بفمه الكبير ويدفعهم إلى عمق أحشائه. كأنّ مردوخ يصبّ جام غضبه من بعيد ويشحن للحرب غيلة. فتحت تيامات عينيها، وأصاخت السّمع لاستجلاء الأمر ومعرفة مصدر الصراخ والأنين، لطمة وطرطقة أخشاب، أصوات عالية متوترة تطلب النّجدة من خفر السّواحل ومن آلهة البحار والمحيطات. فمن قطع غفوتها؟ من يجرؤ على إزعاجها والمرور من بحرها دون إذن منها؟

هي تعرف مراكب البحّارة ومواقيت غدوهم ورواحهم وتميّز أصواتهم الخشنة الآمرة الناهية وزعيقها طلبا بالإسراع. أمّا هذه فهي أصوات رخوة مسالمة كأن أصحابها لم يركبوا البحر يوما. أيكونون من أولئك المتسلّلين خلسة، "حرّاقة" إلى الضفّة الأخرى؟

رفعت سبابتها نحو سطح البحر وأحدثت شقا. أصاخت السّمع فوصلتها الأصوات هستيرية واضحة جليّة:

– النّجدة، النّجدة..

– يا إلهي...

– لقد غرق.. مات

– لقد فعلها عمدا وقلب المركب..

– أمّـي...

– الله أكبر...

– لا تتركوا "رّيس" المركب يفلت..

– إنّها النّهاية...

رأت تيامات عشرات الأجساد مستسلمة تطفو تلهو بها الأمواج. ويلفّها سكون الموت، وأخرى ما زال أصحابها يعافرون من أجل الحفاظ على الرّمق الأخير للحياة فيهم. هالها المنظر البشع وجزمت أنّ مردوخا هو المجرم الذّي قتل هؤلاء. تأكّدت بأنهم "حرّاقة" هربوا من التهميش طلبا لحياة أفضل في النّاحية الأخرى من العالم.

اقتربت تيامات تتفرس في الجثث وتهدئ أمواج بحرها حول النّاجين، وطوت المسافات بينها وبين أقرب مركب للصّيد. رأى أصحابه ما حدث في عرض البحر، مركب منقلب وغرقى وبعض ناجين. فأسرعوا بطلب النّجدة.

رأته من بعيد، في مقتبل العمر جميل المحيّا يصارع كي يبقى طافيا يصرخ بهستيريا ومناديا أمه، ويطلب أن تسامحه لأنّه فشل في الوصول وكسب المال من أجل أن يحقق لها حلمها. ثم سرعان ما فقد الوعي واستسلم نازلا تحت الماء إلى قاع البحر. أدركته تيامات رفعته ومسحت وجهه وحركته ليستعيد وعيه. انتفض، شهق مستردّا نسق تنفّسه وفتح عينيه. فاجأه جمالها وزرقة أحداقها. ابتسمت له أن لا تخف لقد نجوت من الغرق. استجمع كل بؤسه وبكى بشدّة. ثم غنّى بحزن كأنه يحدو قافلة إبل فشاركته تيامات وبكت معه رثاء.

ساعات طويلة من الانتظار.

وصل خفر السّواحل وفرق الإنقاذ فانشغلوا بإخراج الجثث وإسعاف الأحياء. راقبت تيامات المنظر البشع وتساءلت عن عدد مراكب الموت التي ستتسلّل نحو الموت في بحارها.

سرّحت بأفكارها بعيدا، وعلى حين غرّة هجم مردوخ عليها، أسرها وذبحها ثمّ أمر عواصفه بنثر دمائها في الأرجاء. وسيطر على كل البحار. بينما تتالت مواكب الموت والبكاء في كل أرجاء البلاد وسيل "الحرّاقة" لا يتوقف.

---

1 _تيامات هي إلهة البحر والمحيطات في بلاد ما بين النهرين.

2 _مردوخ إله العواصف وهو من قتل تيامات.

3 _الجزيرة والمقصود بها جزيرة قرقنة التونسية التي يتسلل منها معظم المهاجرين غير الشرعيين والتي شهدت حادثة غرق مركب لهم بشهر جوان 2018

آتروبوس*

لمع المقصّ المعدنيّ في يدي العجوز اليابستين وضاقت عيناها تشفيّا، أرسلت قهقهة قصيرة ثمّ صدحت في أرجاء السماء: "غدا يومك، سأقطع خيط عمرك بمقصّي الذّي لا يتعب، تجهّز لموتك، عمرك قصير في حكمي". تباكت قليلا ثم انفجرت ضاحكة فملأت ضحكاتها الفضاء المتّسع ثمّ طارت تعانق مقصّها المخيف. عبرت وديان الجحيم ومرّت أمام باب الجنّة الموصد، حيّت الحارسين بإيماءة صغيرة ودارت حول نفسها بشدّة وانطلقت كالسّهم تنزل إلى الأرض. بقلق راقبت لاشيسيس[2] أختها المسرعة وقالت في سرّها: "ليتني لم أجعله قصيرا خيطه! ليتني قدّرته أطول!". ونزلت دمعة حرّى على خدّها. اقتربت منها كلوثو[3] ربّتت على كتفها قائلة: "لا تحزني يا لاشيسيس ذاك حكم القدر الذّي سطّرناه معا منذ نسجتُ خيط حياته، ولن تتراجع أتروبوس، هي تؤدّي مهمّتها والإنسان عمره قصير!". وانتصبتا تراقبان ما يحدث في الأفق البعيد.

من مسافة لمحته أتروبوس مكتئبا يدخّن سيجارة، نظراته تائهة لا تستقرّ يحمل كلّ انكسارات العالم وخيباته بين جنباته لا تتّضح قسماته من شدّة اليأس والإحباط. بهدوء وخفّة اقتربت منه، دنت وهمست في أذنيه خالطت أفكاره اليائسة، خاطبته فخاطب نفسه: "أترى هذا البؤس يا نضال[4]، هذا العالم لا يربطك به سوى العبث، هذه الحياة كلّها شقاء ومرارة وهذه الكتابة التي تمارسها مجرّد شهوة عابرة لن تغيّر منك شيئا، سيحزنون عليك لأيام ثم يكملون حياتهم كأنك لم تكن يوما، تجهّز يا نضال!" فحّت العجوز أتروبوس وفي لحظة تحوّلت إلى أفعى رقطاء زحفت بعيدا واختفت في جذع الشّجرة التي يجلس تحتها نضال وقد استشعر كأنّ أحدا يراقبه على مقربة منه، التفت يمنه ويسرة فلم ير سوى الخواء والظّلام. عاد أدراجه، جلس تحت فانوس مدخل البيت

وفتح كتابا. ترصّدته العيون ولمع المقصّ أكثر، لقد أعجبها صمته... إنّه صوت الموت، قريبا تقطع خيط حياته وتتلذّذ بطعم روحه الطّازج.

استلقى في سريره على ظهره، تأمّل السّقف وقد تهيّأ له أنّه لمح طيفا ما فيه لكنه عجز عن فهمه. ابتسمت أتروبوس شاكرة ضعفه الإنساني وقد تماهت مع لون السّقف تتابع حركاته. أرسلت موجات جحيمها إلى عقله، بثّت في كلّ خليّة من خلاياه فكرة للموت وألف ألف طريق إليه، الموت هيّن لا يكلّف أكثر من قرار. فلا مكان له في هذا العالم، من سيحفل به إن غادر، من يحفل بوجوده.. لا أحد! فكّر وفكّر، تملّكه شيطان اليأس وكره كلّ الوجود. سيطرت عليه أفكار العبث، وارتسمت ابتسامة عريضة وصدر فحيح ما من السّقف، هكذا بدا له أو خيّل إليه. ظنّ أنّه يتوهّم فأسرعت أتروبوس نحوه، مرّرت أصابعها الطّويلة بأظافرها المتّسخة على وجهه فأطبق جفونه لينام. احتضن فكرة موته المرتقب، تقلّب على جنبيه ولم ينم، بل جذبه سواد هوّة سحيقة لا قرار لها، تسارع وجيف قلبه خوفا، فاقتربت أتروبوس شفّافة واخترقت أصابعها جدار صدره وربّتت على قلبه الواجف حتى هدأ وعاد إلى إيقاعه الرّتيب. جلست حذوه تتأمل تقاسيم وجهه عن قرب لقد بدا هرما قبل أوانه. أحسّ نضال بعيونها التي تتفحّصه لكنه لم يعرف مصدرها، جلس بسريره ثم قام وخرج من البيت. هام لوقت بين طرقات البلدة ترافقه أتروبوس دون أن يدري يلفّهما الظّلام وهي لا تنفك تهمس وتزّين له الموت وتسدّ منافذ الأمل عنه. مرّ على البقالة، اشترى بعض السّجائر وحبل[5]، همست العجوز ساخرة: "زهيد ثمن الموت[5] يا نضال."

بخطى وئيدة مثقلة عاد إلى البيت، جلس قبالة النّافذة يطلّ على الحياة حيث تمتد البلدة وخلفها الجبال الرّاسخة بثبات على الأرض ثم فتح حاسوبه وكتب وصيّة جدارية بحسابه الفيسبوكي. "أخيرا!"، قالتها أتروبوس ورقصت فرحا وغنّت بصوتها القادم من الجحيم كالفحيح، أمسكت مقصّها متحفّزة، اقتربت وقد تماهت مع بياض الحائط.

صعد نضال فوق الكرسيّ وربط الحبل بالسّقف ثمّ لفّه حول رقبته يخالطه تصميم أتروبوس وخوف الإنسان فيه. ركل الكرسيّ ملقيا إيّاه بعيدا وتدلّى متخبّطا جاحظ العينين وشهقاته مكتومة. قطعت أتروبوس خيط عمره بمقصّها وعالجت روحه حتى فاضت من جسده وحبستها في قنّينة من فخّار. تركته جثّة هامدة متدلّية وصعدت تقفز بين سماء وأخرى ثمّ دلفت إلى الجحيم. ألقت خيط حياة نضال في النّار المستعرة، وجلبت مدادا أسودَ خالطته مع روحه في القنينة ثمّ شربت منه وسكبت الباقي تغسل به كرة الأرض. أمسكت بمقصّها وطارت تحوم بين سواقي الجحيم، دارت حول نفسها بشدّة ثم نزلت متّجهة نحو الأرض، رأته منزويا بعيدا عن والديه وبيده الهاتف، اقتربت تسترق النّظر، إنّه يلعب لعبة الحوت الأزرق. ارتدّت قافزة إلى السّماء، شحذت مقصّها جيّدا، فقريبا تصل اللّعبة إلى مستوى الانتحار، وعادت لتقطع خيط حياة الصّغير وقهقهاتها تملأ الكون.

---

*1_آتروبوس: إلهة من آلهة الجحيم عند الرومان والإغريق وهي المسؤولة عن قص خيط حياة البشر.

2_لاشيسيس وهي أخت آتروبوس المسؤولة عن قيس خيط حياة البشر.

3_كلوتو الأخت الثالثة لآتروبوس ولاشيسيس المسؤولة عن حياكة خيط حياة البشر.

4_نضال اسم للإشارة إلى الكاتب نضال الغريبي الذي انتحر في شهر مارس 2018

5_مقتطفات من وصية نضال الغريبي كتبها على حسابه الفيسبوكي ونشرها موقع أنتليجنسيا للثقافة والفكر الحر.

إطلالة على العالم الحديث

تمطّى بروميثيوس[1] في مكانه، سوّى ثوبه الحريريّ الأبيض المنسدل، لفّه جيّدا حول جذعه ثمّ ثبّت أطرافه العليا على كتفه الأيسر. ارتدى نعله العتيق وهو يتساءل كيف غدا لباس البشر الآن بعد كل هذه القرون. رفع دفّة كتاب الأساطير قليلا وأطلّ برأسه حذرا، أخرج السّاق الأولى، انزلق إلى الأمام أكثر وألحق ساقه الثّانية. فتح الدّفّة إلى أقصى جانبها وقفز إلى الخارج. سرى خدر مفاجئ في أطرافه أثقل حركته لدقائق، فهو لم يتحرّك منذ قرون طويلة بحريّة وزاد قيده إلى الصخرة الكبيرة في تيبّسها، هنّأ نفسه على الحرّية أخيرا، ولعن القيد شامتا لما أصابه من صدأ وتآكل. التفت وأغلق الكتاب بقوّة جعلت غبار السنين يغشاه حملق فيما حوله، رفوف تملأ المكان، تصل إلى السّقف مملوءة كتبا.

على هدى ضوء شاحب خطى على أطراف قدميه، وكلّما خرج من ممرّ وجد نفسه في آخرَ مماثل. تشابهت كلّ الأروقة برفوفها وكتبها الكثيرة. ظلّ يتجوّل فيما بينها دهشا، يتصفّح بناظريه عناوين الكتب يحاول تذكّر ما بدا مألوفا ويستغرب العناوين التّي عقبت زمنه، وبين الفينة والأخرى نهنهات وخطى بعيدة. توغّل أكثر بين الممرّات حتى انتهى إلى آخرها عند حائط عال تتوسّطه بوّابة كبيرة موصدة. حاول فتحها لكنّها ثقيلة لا يمكن معالجتها، ابتعد متّخذا طريقا أخر بين ممرّات المتاهة. تقدم حتى خرج من باب جانبيّ، وجد نفسه في قاعة فسيحة تملؤها طاولات جلاّسها كثر، الكلّ منكبّ على كتاب أمامه لا يرفع عنه بصره، لا صوت سوى تلك النّهنهات التي سمع مثلها بالدّاخل وحفيف الورق بين الأيادي. مشى على رؤوس أصابعه حتى لا يخدش الصّمت، انسحب والدّهشة تعقد لسانه من هيئة الناس المعقّدة الذّين رآهم

بالدّاخل، لا شيء يبدو مألوفا، لا شي يشبه القِدَم. حاول المضيّ دون أن يثير انتباه أحد، حتى فجأة وجد نفسه تحت بوّابة تفضي مباشرة إلى الطّريق.

انزوى خلف إحدى السّيارات وتأمّل ما حوله، أبنية كثيرة تملأ المكان غريبة التّصميم، وطرقات سوداء مكتظّة بعربات كالعلب بدت له عجيبة، ففي عصره هناك عربات تسحبها الأحصنة وهذه تتحرّك لوحدها، خطى حذرا يريد قطع الطّريق فأطلقت أبواق السيارات أصواتا كادت تصيبه بالجنون، كان آخر عهده ببوق هرقل، رغم صوته القويّ إلاّ أنّه كان مألوفا، أما هذه فتثير الصّداع وتشتّت التّركيز. كادت تصدمه سيّارة مجنونة وهو يحملق في الأسلاك المعلقة التي تملأ السّماء، ابتعد عن الطّريق وسلك بين السيّارات المركونة سبيلا. فما راعه إلاّ لغط وجمهرة أناس تعترضه، توجّس والصّراخ يعلو أكثر:

-اشتعلت النّار.

-أوقفوه.

-أطفئوا النيران.

-ستلتهمه.

-هذا بوعزيزي آخر.

- اللّعنة، أهذه هي الحريّة؟

- أنجدوا رزوقة[2]

-الماء، الماء.

- الرّجل يحترق.

- لك الله يا عبد الرّزاق[2] ينصفك.

زحف بروميثيوس على أطرافه الأربعة، تقدّم بين أرجل المتجمّعين ونظر حيث يحملقون بفزع. رجل تشتعل النّار بجسده، يتخبّط بلا هوادة ويستغيث، ولا

أحد يقدر على الاقتراب منه. سرح بصره في ألسنة اللّهب بينما تداعت أفكاره كشريط سريع اللّقطات، كم هام حبّا في البشر، وكم أشفق عليهم وظلام الكهوف يؤرقهم والبرد والجوع يعصف بهم، كم من مرّة لجأ لزيوس[3] طالبا مساعدته من أجلهم، ورغم رفضه طلبه إلاّ أنّه لم يستسلم بل تحدّى ملكه، وقدّم لهم هبات كثيرة ساعدت على تسهيل حياتهم. لن ينسى هول ما حصل معه وهو يقوم برحلته إلى جبل الأولمب سرّا وقد طال به البحث بين الكهوف والمغارات، لا يريد شيئا سوى قبس من نار. لولا الصدفة التي جعلته يكتشف الشّرارة حين شقّت الظّلام لقضى زمنا طويلا في البحث. تذكّر تلك المخاطرة وهو يختلس شرارة منها. كم كان راضيا بقدره حين اكتشف زيوس فعلته وعاقبه، قيّده إلى جلمود صخر بأعلى قمّة الجبل وأمر النّسر الإلهيّ يأكل كبده. لن ينسى آلامه التّي لا تنتهي حين أمر زيوس بأن يخلق له كبد جديد كلّما فنى كبد. تحمّل قدره بصبر وشجاعة لأنّه كان يعرف أنّ عقابه سينتهي يوما ما وأنّ مستقبلا أفضل ينتظر معشر البشر.

أهذه هي النّار التّي سرقها من أجلهم؟ ها هي اليوم تشتعل فيهم وتقتلهم بدل أن تكون سبيلا للمعرفة وأداة إبداع. كان يعرف أن البشر سيسيئون التّصرف يوما ما، لكن لم يتخيّل أن يصل بهم الأمر إلى أن ينحدروا إلى العصر الحديدي الذّي سطّره القدر. بمرارة استرجع أنشودته التّي كان يواسي نفسه بها وهو مقيّد إلى الصّخرة على قمّة الجبل وأنشد:

بسبب حبّي للإنسان

أكابد هذه الآلام

كما ترونني إله مسكين

مربوط بالسلاسل

في جلمود صخر

تسخر مني الرّياح

مكروها من باقي الآلهة

يجب أن أمتثل لقدري

قدر الإمكان

اسمعني أيها الفضاء السّماويّ

اسمعيني أمّنا الأرض

أنصتي إلى آهات كربي وبؤسي

ثمّة شيء يقترب[4]...

ردّدها بحزن ومرارة وقد اختلط صوته بصراخ الرّجل المشتعل وصرخات النّاس فيما حوله، بكى بروميثيوس بشدّة وهو الذّي لم يبكِ يوما حتّى حين كان يأكل النّسر كبده. لكم تغيّر البشر، تركوا الإبداع والفنّ والعلم والفلسفة، وانحدروا إلى حضيض الجريمة وقلّة الشّرف، أيكون زيوس على حقّ حين أخبره أنّ الإنسان يسيء استخدام نعم الآلهة. لكم تغيّرت هذه المخلوقات الضّعيفة، صارت على غير عهده بها.

لم يقدر أحد على إطفاء النّار، احترق الرّجل وحين خبا اللّهب حملته سيارة الإسعاف إلى المستشفى...

انسحب بروميثيوس مبتعدا، لاحت له فجوة في حائط متداع، قفز فيها بلا تردّد. سقط في مكان ما، وقف مترنّحا، تناهت إليه أصوات أدوات الأكل مختلطة بموسيقى وإيقاع خطوات تروح وتجيء بلا توقّف، اقترب من الباب الموارب، نظر من الشّقّ، طاولات كثيرة تزيّنها مأكولات وشراب جلس إليها روّاد كثر، كلّ شاب يجلس إلى فتاته وقد تشابكت الأيدي والتقت النّظرات والتصقت الأجساد. فجأة طغت على كلّ الضّجيج ضحكة مجلجلة طويلة، نظر إلى صاحبتها، بدا له وجهها مألوفا، مسح بناظريه كلّ المكان وانتهى إلى وجهها ثانية يتأمّلها ويحاول أن يتذكّر أين يعرفها، التقت نظراتهما، أومأت له

برأسها وأسدلت جفنها. فجأة قفز كمن لسعته عقرب وصاح: "باندورا[5]!..لاااااااااااااا.. باندورا!". رفع ثوبه إلى ركبتيه وأطلق ساقيه للرّيح، وجد نفسه في الشّارع الرّئيسي، غير بعيد عنه ساعة عملاقة، جرى صوبها، دار حولها، وجد شقّا في جذعها الحديديّ تسلّل منه إلى داخلها، وتعلّق بالحبل المتدلّي في قلبها، حتى إذا وصل العجلة المتحكّمة في حركة العقارب رفعها قليلا وانزلق إلى الدّاخل، ذاب مع نبضات الزّمن الّتي توقّعها العقارب بصبر أبديّ. عاد إلى زمنه، تقدّم في الظّلام يتحسّس طريقه بحذر، حاول تذكّر المكان الأول بدقّة، وزّع الممرّات على ذاكرته حتى وصل إلى رفّ كتب الأساطير، رفع دفّة الكتاب تقدّم بساقه اليمنى ثمّ اليسرى، انزلق بكلّ جسده في الكتاب، وترك الدّفّة تنطبق على الورق، وصمت ثقيل يطبق على المكان، يكتم ضجيج ما في صدور الكتب.

1- بروميثيوس هو أحد حكماء التايتن حسب الأسطورة الإغريقية سرق النار وقدّمها للبشر.

2- في إشارة إلى المصور الصحفي عبد الرزاق الرزقي الذي مات محترقا يوم 24 ديسمبر 2018 بمدينة القصرين.

3- زيوس هو أب الآلهة والبشر عند الإغريق يحكم آلهة جبل الأولمب باعتباره الأب الوريث.

4- مقطع من نص مسرحي كتبه الكاتب محمد زكريا توفيق حول أسطورة بروميثيوس سارق النار.

5- باندورا هي أول امرأة يونانية وجدت على الأرض خلقت بأمر من الإله زيوس وأرسلت إلى بروميثيوس وأخيه كجزء من العقوبة على البشرية حيث فتح أخو بروميثيوس الصندوق الذي بحوزتها ويحوي الشرور والأمراض التي انتشرت في البشرية.

مشرط غير صحي

إبرة تحقن وريده والظّلمة تتسلّل إلى أعماقه. سرى المخدّر سريعا متوغّلا في شرايينه، يحتلّ كريّات دمه، يفصله عن كلّ الدنيا خليّة فخليّة، والجرّاح يرمقه بنظرات غريبة يشوبها الاحتقار والتقزّز.

أمال الفأر رأسه يمنة فيسرة، حرّك أرنبة أنفه وتقدّم بحذر، حتى إذا مرق من شقّ الباب الموارب بدأ يقرضه من الأسفل في حركة سريعة وإيقاع رتيب. تضاعف فجأة حجمه، أصبح كقطّ كبير، استطالت أرجله وبرزت قواطعه أكثر. قفز فوق الطّاولة الطبيّة وقد همدت حركة الرّاقد عليها. تحرّك على الجسد المستلقي، حين اطمئنّ لعدم صدور أيّ ردّة فعل منه دنا حذو الرّأس، حدّق في العينين المغمضتين لبرهة، انحدر إلى البطن يستكشفها. ثمّ قفز إلى الآلات يلهو بأزرارها ويشبك خيوطها. جذبه لمعان المشارط والملاقط المرتّبة، تحسّسها حذرا ثمّ أسقطها جميعا على الأرضيّة الرّخامية فأحدثت صليلا مفاجئا. والرّاقد لا يزعجه ما يحصل بقربه فلا يستيقظ.

الأدوات المعقّمة ملقاة هنا وهناك، تمشّى الفأر حذرا بينها، وقد عاد إلى سيرته الأولى صغير الحجم أبيض اللّون، قفز ناحية آلة مراقبة القلب واختفى. غاب لبرهة، ثم عاد وخلفه قطيع من الفئران السّوداء، تحلّقت حول الطّاولة فيما اعتلى هو الجسد الممدّد وقد غدا بحجم كلب. تشمّم الأرجل، صعد معها حتى وصل إلى الوسط، برقت عيناه بخبث، رفع رجله اليمنى وقد توسّط أصابعها ظفر طويل كشفرة شديدة الحدّة. مزّق به القماش الذّي يستر البدن، ثمّ شقّ البطن من الجانب الأيسر حتى وصل إلى الكلية. قطعها من مكانها، مرّرها أمام أنفه يستنشق رائحتها كالثّمل، رفعها عاليا ليراها معشر الفئران

المترقّب أسفل الطّاولة. فعلا نهيز بشع يشجّعه، التهمها بشراهة وصوت مضغه يزيده نشوة ويفتح شهيته أكثر.

تأمّل الوجه فإذا هو شاحب تغزوه صفرة الصّمت، ورغوة ناصعة تملأ الفم، بينما الرّأس منقشع إلى الوراء. لربّما مات، قلبه لم يتحمّل إزالة الورم المتكتّل على الكلية، مماممم الفرصة مواتية إذا. شرط اللّحم بمشرطه أكثر حتى وصل إلى الكبد، بِنَهَمٍ مفترِس قطع فصّها الأيسر، تشمّمه ثم التهمه، ونميم الفئران في الأسفل يزيد توحّشه. توجّه نحو الرأسّ، العينان شهيّتان لا ضير في أن تكون التّحلية بإحداهما. تلمّظ الفأر، تجشأ ثم رفع رجليه الأماميتين جذلا، ومشرطه يقطر دما ولعابه يسيل أكثر. وثب إلى الأرض، قاد الفئران نحو الجحور لكن بغتة انطبق فخّ على رجله اليمنى من حيث لم يره وانكسر مشرطه. سرى الذّعر بين الفئران السّوداء، فتفرّقت واختفت بطرفة عين كأنّ الأرض ابتلعتها.

بينما بقي الفأر الأبيض وحيدا يصارع من أجل النّجاة، تتالت محاولاته لتخليص رجله النّازفة، لكنّه لم يفلح، وهنت قواه فسقط مكانه مغشيّا عليه. قام الرّجل المخَدَّر من مرقده فوق الطّاولة ونزل على الأرضية كمن يمشي أثناء النوم، مشى ببطء كرجل آليّ، اقترب من الفأر الأسير وقد رفع بيمناه مشرطا من المشارط الملقاة. ذبحه وسلخ جلده، قطّع أوصاله، جمّع كبده وقلبه وكليتيه وكرتي عينيه الصّغيرتين، وضعها مكان أعضائه المفقودة من جسده، وما بقي منها أوصلها بخيط وعلقها طوقا حول عنقه ثم عاد واستلقى، نام باستسلام.

على عجل أُغلق الصّندوق الذي وضعت فيه الأعضاء، انسحب حامله إلى الخارج بينما أزيز الآلات يعلو منبّها باستفاقة الرّاقد وعودة نبضه، فلربّما المخدّر لم يعط مفعوله للزّمن المطلوب. انزاح الظّلام عن وعيه وناظريه، تأمّل المكان، آلات كثيرة بالقرب، خيوطها تتشابك في عقله. من فوق تطلّ عليه عينان تحملقان فيه بغرابة، تحيط بهما ملامح فأر بأرنبة بارزة وقواطع تنفرج عنها الشّفاه أو هكذا خيّل إليه، والجذع منه يرتدي البياض. حوّل نظره إلى الأمام،

قماش أخضر يفصل رأسه عن باقي جسده. حاول تحريك أطرافه لكنّها بدت ثقيلة لا تتجاوب مع رغبته في النّهوض. عقله يتداعى والأفكار تتّضح في ذهنه سلسلة تتشكّل حلقاتها ببطء من مغارة ذاكرته العميقة. الشقّة ... السّيارة ... زوجته التّي هجرته ... البنك وكابوس الدّيون الذي يلاحقه بلا هوادة، لم يسدّد القرض في الآجال المتّفق عليها وما من حيلة أمامه سوى الهروب من الفضيحة. قرّر الانتحار، ربط الحبل بالسّقف ووضع المشنقة حول رقبته، دفع الكرسيّ تحته، تدلّى يتخبّط بين حرارة الموت والحياة. يمناه تسلّم التّقارير الطبيّة والعقد الممضَى، ويسراه تتلقّى الشّيك. الخوف يقفز من عينيه بينما الطبيب يحاصره:

-هل من خيار أمامك؟ الوقت يكاد ينفذ.

-الفأر يقضم رجل الطّاولة، ثم يأكل أعضاء الطّبـ...

-هذا هراء، الفئران لا يُخشى عليها من التّجارب... هيّا استلقي!

بينما هرب كلّ الطّاقم من حوله، بقي الجرّاح وحيدا يحملق فيه من فوق مذهولا. على حين غرّة احتلّ رجلان غرفة العمليّات، أمسكاه وحقناه في رقبته، هوى على الفور فوق الطّاولة الثّانية بينما المشرط يعمل سريعا في جسده. أخذا الكلية والكبد وإحدى العينين، وضعاها في صندوق، ها قد سدّد الدّين الذّي عليه، والأعضاء التي باعها خلسة ها هي الآن بين أيديهما. لم يلتفتا حتّى للرّاقد بالقرب، انسحبا بخفّة، ساد سكون توقّعه آلة مراقبة القلب برنينها المضطرب. سحب نفسه بعناء من الطّاولة، يحاول ألاّ يغيب عن الوعي، مشى ببطنه المفتوح خطوات كأنّها أميال. ضغط بكلّ ثقله زرّ الطّوارئ وسقط ينازع بالقرب من جثّة الجرّاح.

التّحوّل

لم يتحوّل عن حالة الجمود التّي بقي عليها منذ جلس منهمكا في القراءة بالمكتبة العامّة. لدقائق قليلة توقّف ليتذّمّر، هذه العين المريضة لا تدعه يرى بوضوح، وهذه المشاكل المعشّشة في عقله لا تفتأ تتكاثر كخلايا ورم تمنعه من التّركيز. ما بال الجميع لا يتركه يهنأ بساعة من السّلام والطّمأنينة، ضاق عليه هذا الجسد الذّي انطبعت صورته في الأذهان رجلا، والكلّ يراه كذلك. كثيرا ما رافق الذّكور إلى قاعات الرّياضة ليشتدّ جسده الهزيل وتتشكّل عضلاته، لكنّه لا يزال كما هو، ناعم البشرة بشعر ذقنه الخفيف وخصره المنحوت، ليّن الأرداف وصدره مكوّر كصدر غِرّة مراهقة، صوته رقيق وحركاته متّسقة بدلال. كم تمنّى لو تموت صفة الرّجل هاته ويُبعث فتاة كما أراد عقله ووعيه دوما. يريد أن يعيش كأيّ بنت تلهو مع صديقاتها وترسم حاجبيها وتضع أحمر الشّفاه. إنّه فتاة بكل جوارحه، حتّى في خيالاته يرى نفسه يرتدي أثوابا زاهية الألوان، ومرآته كلّ صباح تخبره أنّه أنثى. متى يتحرّر من هذا الأسر الذي يطمس حقيقة جنسه بتواطؤ الجميع حوله، فقط لأنه ولد ذكرا. اتّخذ قراره ولن يتراجع، سيخضع لعمليّة التحوّل، لن يخاف النّاس وكلامهم السّخيف. "اللّعنة... اللّعنة على كلّ من هبّ ودبّ"، أطلق لعناته التّي لم تتجاوز قشرة دماغه وخلاياه. كان أجبن من أن يقطع صمت المكتبة وهدوء روّادها.

ربّت على الكتاب بين أنامله وعاد إلى القراءة "كما تتلاشى الصّورة في فيلم سينمائيّ يبدأ العالم الحقيقيّ في التّبخّر من ذهني، أُصبِح وحيداً داخل القصّة وهذا إحساسي المفضّل"[1]. تنفّس بأريحيّة، هذه الأسطر تبعث فيه طمأنينة كغيمة شفّافة وقد تلاشى العالم الماديّ بكلّ حضارته وجنونه التكنولوجيّ وكلّ ذكوره الغلاظ... لا أثر. ابتسم يشجّع نفسه، دعك عينه المريضة واتّكأ بوضع مريح وهمّ بمواصلة القراءة. لولا أن جحظت عيناه ثمّ انبثقت بالرّغم منه، قفزت

الكرتان خارج محجريهما، صُدم وهو يرى زاوية نظره تتغيّر كلّما تحرّكت. طافتا في أرجاء المكتبة، تقفز نحو كتاب يمسكه قارئ وتلتصق على الصّفحة التي يقرأها، فيرميه فزعا. أو تتسرّب بين صفحات الكتب المرصوصة تجعّد الأوراق وتفسد حبرها بدموعها. حاول الإمساك بهما، جرى يتبعهما ولم يطلهما، أحسّ بالحرج والإنهاك فعاد مهزوما إلى مقعده تتعثر خطاه بين الطّاولات والكراسي، فالرؤية مشوّشة هنا وهناك حسب مكان وجود عينيه. وانخرط في تيّار نهر الصّمت الذّي يلفّ المكان. حينها قفزت نحوه عيونه المنبثقة، واستقرّت برأس مجسّات نبتت فوق حاجبيه وبدت كقُرُون. أمسكها دهشا وتحسّسها، ليّنة رخوة تنبعث منها رائحة المطر. شعر بها تتمايل ودموع غزيرة تسيل منها غمرت المحاجر الفارغة. ادلهمّت المكتبة فجأة بكتل من الغيوم السّوداء تسرّبت من النّوافذ. استقرّت فوق رأسه مباشرة وتعسّرت الرؤية. فقام يغيّر مكانه متجاهلا إيّاها لكنّها تبعته، وأسقطت مطرا لزجا على صّفحات الرّواية المنفرجة دون أن تتبلّل أو تتلَف، فقط اختفت الأسطر وانسحبت الكلمات مع الماء المنهمر إلى هوّة من البياض. بغتة قفز الكتاب فارغ الصّفحات وتراقص فوق الطاولة، حاول الإمساك به لكنّه راوغه. أثارت خبطاته على الطّاولة ضجيجا أزعج الرّواد، فنظروا إليه شزرا مستطلعين بحيرةٍ، المجسّات الغريبة بجبينه، ما جعله يستكين مكانه رخوا خجلا. بينما سكن الكتاب واستحال رويدا رويدا إلى كومة هلاميّة من البياض، كدهن كثيف اندلق بإهمال يغطّي وجوه الهوامش العفراء. تمطّط وتكاثف واتّسعت رقعته، امتدّت منه يد كبيرة أمسكته من ياقة قميصه الأحمر وجذبته إلى عمقها. غاص ينزلق لا يدري إلى أين، ركل ودفع بأطرافه كلّ الجهات وقد استبدّ به الرّعب يريد الخروج، ظنّ أنه سيموت اختناقا مع انعدام الهواء لكنّ ذلك لم يحدث، بل أحسّ بعرق شديد ينبجس من كل مسامّ جلده يزيد من سرعة انزلاقه ورائحة المطر لا تغادر أنفه.

بعد زمن لفظه البياض، نظر حوله، إنّها المكتبة، تمطّى بمكانه. أحسّ كأنّ الأرض تنسحب له وتتمدّد وكلّ شيء استحال كبير الحجم يفوقه عشرات

المرّات حتى الكرسيّ الذّي كان يجلس عليه منذ قليل لا يصل إلى شبر واحد من قوائمه. سرح ببصره متعجّبا، ثمّ اتّجه نحو أحد الرّواد ليسأله عن سرّ التحوّل. حاول المشي فلم يقدر، أحسّ بنفسه ينزلق على رخام الأرضيّة وثمّة شيء ما فوق ظهره يعيق حركته، والعرق الذّي ينزّ بلا توقّف جعل الغبار وبقايا الأتربة تلتصق بجسمه فيبطئ أكثر. اقترب منه، يبدو رجلا عملاقا يستطيع سحقه بحذائه مرّة واحدة. تأخّر قليلا إلى الوراء ليجعل بينهما مسافة أمان. وناداه، لكنّ الرّجل لا يلتف إليه ولا حتّى تفطّن لوجوده. كان يجلس متصلّبا ونظره معلّقا في الأفق عبْر النّافذة المشرعة أمامه. نظر إلى ما ينظر فرأى قرصا أحمر اللّون جهة الشّرق. دنا من حذائه وحاول الصّعود لكنّه انزلق، رأى خيط الحذاء يتدلّى تمسّك به، تسلّق واصّعّد مع سرواله. ارتقى إلى يده وبدأ بالصّياح والنداء لكنّه لم يعره انتباها. بل ندّت منه حركة مفاجئة طوّحت به بعيدا عبر النّافذة. استقبله حائط تغطيه لافتة إشهاريّة عن آخر كريمات التّجميل بمخاط الحلزون والقواقع. حاول التّعلّق جيّدا حتّى لا يسقط، لكنّه انزلق إلى الأسفل حتى استقرّ على الرصّيف مخلّفا خطّا فضّيا. وعلى مقربة منه علا ضجيج وصيحات دهشة لجماعة من النّاس متحلّقين حول جلد جاف على هيئة إنسان ملقى في الشّارع يقلّبونه بمقدّمات أحذيتهم. شدّه الفضول فاقترب ببطء واستطالت مجسّاته مستطلعة. صاح فزعا وهو يرى ملامحه ملقاة بالقرب وأطرافه منكّسة بلا حراك تحت الأقدام. حاول تحسّس وجهه لكنّه اكتشف أنّه غدا بلا أيد وفهم سبب عدم قدرته على المشي كالعادة. ابتعد على عجل، اقترب من واجهة أحد المحلاّت القريبة وتسلّق الحافّة الخشبيّة حتى وصل إلى مستوى البلّور العاكس. بُهت وهو يرى صورته المنعكسة أمامه، تدحرج مغمى عليه في مكانه. لقد غدا حلزونا حُنثى بدل أن يتحوّل إلى أنثى.

---

*1. مقتطف من رواية كافكا على الشّاطئ للكاتب الياباني هاروكي موراكامي

لكنّه مازوشيّ

جلس في مكتبه الفخم، اتكأ بثقة على كرسيّه المريح، عدّل ربطة عنقه وضغط الزرّ. السّكون يلفّ المكان، فقط عينان صامتتان فوقه متجمّدة نظراتها. إطار مذهّب كبير يزيّن لوحة حصان عربي أصيل توسّط الحائط خلفه. قدمت السّكرتيرة أنيقة تسبقها رائحة عطرها، استنشقها بعمق مغمض العينين، وردّ على ابتسامتها المشرقة بابتسامة ودودة. تململ الحصان في اللّوحة، حرّك رأسه يمنة ويسرة، شخر بقوّة ورفس بحوافره الأماميّة الأرض فثار التّراب، غامت اللّوحة وصهيله يذوب في الغابة خلفه. استعرض معها برنامج العمل اليوميّ وبعض الأوراق، طلب التّقرير المالي للمشروع الجديد، لكن التقرير لم يجهز بعد. تململ في كرسيّه، أومأ رأسه بشدّة ناحيتها، ضرب سطح المكتب بعنف وصاح غضبا. يريد التقرير جاهزا بعد ساعة وإلاّ ستفصل هي والمحاسب. لم يستطع جمالها كبح عاصفة غضبه بل نهرها آمرا إيّاها بالعودة إلى عملها. رفع قدميه ووضعهما على المكتب وأشعل سيجارة بغيظ.

لم يجهز التّقرير المالي، كال المدير للسّكرتيرة الشّتائم وحين حاولت التّكلم صفعها، وطلب منها العودة إلى مكتبها، بينما صاح في وجه المحاسب طالبا منه استقالته ليوقّعها. هؤلاء الموظّفون لا يلتزمون بالعمل إلا إذا هدّدهم بالفصل، لن يمنحهم إجازات ولا راحة سيعملون فقط وإلا فليجدوا مكانا آخر يسلّمهم رواتب. فار غضبه كبركان، انكبّ على أوراقه وبين الفينة والأخرى يرتشف القهوة ويضع الفنجان بعصبيّة. بينما الحصان في اللّوحة خلفه يصهل ويرفس حتّى تعب فانبرى يأكل الحشائش. امتدّ السّهل داخل الإطار، مرج مريح للنّاظرين. عنّ له أن يستدير بكرسيّه إلى الخلف ليتأمّل البحر من النّافذة ككلّ مرّة يغضب فيها. لكن بصره توقّف عند اللّوحة، لأوّل مرّة يتأمّلها باهتمام منذ علّقت في مكانها، تراءى له أنّ الحصان يتحرّك،

يتذكّر أن رأسه يحتلّ معظم مساحة اللّوحة والآن ها هو بعيد يرعى في المرج... الأمر غريب.

جلس الكلّ قبالته ينتظر افتتاح الاجتماع واستعراض تفاصيل المشروع، تنحنح، عدّل ربطة عنقه بغرور، رشف من قهوته وشبح ابتسامة سخريّة ارتسمت على شفتيه وهو يتأمل شركاءه واحدا واحدا. اللّعنة عليهم ما أحمقهم ما أثقل دمهم. سيتسلّى بهم كما يريد، لن يتفطّنوا لتلاعبه المالي مهما فعلوا، وإن فعلوا ذلك لن يقدروا على فعل شيء له، هو الآمر النّاهي وصهره الوزير يحميه لن يتجرّؤوا عليه أبدا. اللّعنة عليهم ما أغباهم.

أغلق باب البيت خلفه، وضع حقيبته ونزل على أطرافه الأربعة، "هب هب هب"، نبح ككلب بيت مدلّل معلنا عن عودته. مشى ببطء يبحث عن زوجته في أنحاء البيت. أقبلت نحوه هاشّة مرحبة: "أهلا كلبي العزيز... أهلا بالكانيش المدلّل". انحنت تقبّله وتربّت على شعره وأكتافه. ركبت ظهره وأمرته بإيصالها إلى المطبخ. بالقرب يعيش كلب جميل في لوحة معلّقة تزيّن المكان، لا طوق يزيّنه ولا سلسلة تربطه، كلب حرّ سيد نفسه، لا يغادر صمته ولا لوحته، فقط يشاهد ما يحصل حذوه. تمطّط بعد أن تيبست أطرافه من طول السّكون، اقترب حتى ملأ وجهه إطار اللّوحة، حرّك أذنيه وفتح عينيه جيّدا، نبح بودّ مرحبا لكن صوته لم يتجاوز ألوان اللّوحة. جهز العشاء، قام الزّوج من الأرض، نقل الصّحون إلى الطّاولة، ووضعت له طبقا على الأرض، كرع يأكل كجرو، وبين اللّقمة واللّقمة يعوي بمتعة، انبرى جاره كلب اللّوحة يلعق الحليب من صحن أمامه وقد تغيّرت أبعادها. غيّر ملابسه والتحق بزوجته في غرفة المعيشة، كانت تجلس نصف مستلقية ترتدي قميصا قصيرا شبه عار. تقدّم نحوها وهو يمشي على أطرافه الأربعة ثم قرفص بجانبها على الأرض، نبح بهدوء، اقترب أكثر وبدأ يلعق أقدامها وأرجلها بانتشاء غريب.

تلمظ الكلب، ابتعد قليلا إلى الخلف يبصبص بذيله يراقب مليّا ما يحصل تحته في الأريكة ويطلق عواء مكتوما تعبيرا عن المهانة.

-كلبي العزيز... نسيت أن أبصق بوجهك اليوم، لمَ لمْ تذكرني؟
-مممممممممم.. هَوْ هَوْ هَوْ هَوْ...
صفعته بشدّة على وجهه، بصقت عليه ودلّكت بصاقها بأصابع قدميها، وحين انتهت دفعته بقوّة طرحته أرضا. غطّى الكلب وجهه بقائمتيه الأماميتين كأنّه يدرأ ضرباتها، نبح بجنون وغضب، وحركته لا تهدأ. قامت من جلستها، وصعدت واقفة فوق صدره بكعب حذائها العالي، وبدأت ترفسه وهو يئن متلذّذا. عاد واتّخذ هيئة الكلب على أطرافه الأربعة، نبح كالعادة مستسلما، ألبسته لجاما جلديا ربطت نهايته في رجل الطاولة، عصبت عينيه وبدأت تضربه بسوط على أردافه. أنّ وجعا فزادت من قوّة جلداتها، تحوّل أنينه إلى عواء مكتوم لكنّه لا يقاوم بل استسلم لضرباتها أكثر. جنّ جنون الكلب في اللوحة، أثار الغبار من شدّة حركته وهيجانه ونبح حتى بحّ صوته، أخرج أرجله الأمامية -أخيرا نجح- قفز خارج اللّوحة، أمسك السوط بأنيابه، جذبه بقوة وعاد إلى لوحته، تعبت من الضرب، رمت السّوط بعيدا، فعلق عاليا فوق اللّوحة لا تطاله يدها. باعدت بين ساقيها فوق رأسه وبالت عليه. قرفص ودلّك ماء البول على وجهه، وخلّل شعره.
استلقت تدخّن سيجارة، وتتسلّى بنتف شعر لحيته وقرصه بأظافرها حتّى أدمته. دعته إلى سريرها خاضعا مستسلما، مشى في أثرها لا يغيّر مشيته على أربع، اقترب يريد تقبيلها، قهقهت بمجون ودفعته عنها. نبح الكلب أكثر ولم يهدأ عاود الخروج من لوحته، كشّر عن أنيابه مهددا واقترب منها غير أنّها أمسكت بمنفضة السجائر وألقت بها على اللوحة فسقطت متناثرة أجزاؤها، بينما انسحب الكلب. وقامت تستقبل عشيقها الأجنبيّ بين ذراعيها الذّي كان يقف بباب الغرفة ويتجرّد من ملابسه. سحبت زوجها من لجامه وربطته في رجل السرير، وسرعان ما غابت في أحضانه، وبقي يشاهدهما ولذّة تجتاحه فينبح بفرح.
قضت وطرها، قادت زوجها إلى الصّالون وعشيقها من الخلف يعده بمفاجأة رائعة ويركله على أردافه، وفي ركن ما عين آلة تصوير لا تهدأ عن توثيق ما

يحدث. هاله ما رأى، قام يريد الوقوف على أرجله، لكنّ زوجته أخضعته باللّجام، وعشيقها يثبّته على الأرض بالركوب عليه. وأحد شركائه أمامه يقول له بنبرة صارمة: "ليس قبل أن توقع على تنازل لفائدتي لرئاسة مجلس إدارة الشّركة، وإلاّ سأنشر الفيديو على كافّة منصّات التّواصل الاجتماعي على شبكة الإنترنت."

دوّت ضحكاته مجنونة تملأ أرجاء البيت.

لاحقا حجز في مستشفى الأمراض العقلية وكلب جميل لا يغادره رغم محاولات الإطار الطّبّي طرده من المكان مرّات كثيرة.

شيزوفرينيا

لن يعود كما كان أبدا وهذه الفوضى اللّعينة تحتلّ عقله، قلبت كيانه وكلّ حياته. فكّر وهو جالس في المدرج ينصت باهتمام إلى المحاضرة حول آخر التّطورات في برمجيات الأجهزة الذّكيّة. تلاشى صوت الأستاذ رويدا رويدا ونقص إدراكه لما يقال. ملأه الخواء لدقائق، ثم احتلّ رأسه وجه حمار كبير طويل الآذان أصفر الأسنان واسع الفكّين ينظر إليه نظرات غريبة. حملق فيه طويلا، وعلى حين غرّة نهق بجنون في عمق عقله. زلزل جمجمته ورجّ كيانه، ارتعد الطّالب وتفاجأ من هول وقع النّهيق فأغمي عليه وانهار متكوّما في مقعده.

النهيق لا ينتهي، لا يغادر رأسه، يلازمه ويتسبّب في أرقه. لا يكاد ينام إلا ليصحو فزعا، يرى حوائط البيت تنهار بسرعة جنونية، ويتداعى كلّ ما فيه إلى هوّة سحيقة ويبقى هو معلّقا في أعالي السّماء. ينقطع نفسه ويعلو وجيب قلبه حتى يكاد ينفجر. أصبحت أحواله متردّية وتغيّرت سحنته إلى الأسوأ، تحوّل إلى كائن شاحب بعيون جاحظة حمراء زائغة نظراتها من التعب، تصيبه نوبات خوف وصرع أغلب الوقت، وكل شيء أمامه يتحرك، يراه يدور داخل رأسه بلا نهاية. وعقله لا يتوقف كقلب ساعة لا يملّ، تتوالد الأفكار فيه ومنه كخيوط متشابكة انفلتت من كرتها على غير هدى. استبدّت به آلام معدته وتفاقم صداعه. وتخنقه الأمكنة رغم اتّساعها تنطبق عليه فيضيق صدره وينخرط في نوبة صراخ تنتهي بانهياره.

كان على شفا الجنون مع اشتداد المرض...

جلس يشاهد فيلما سينمائيا. فتاة تنام في رقعة نور وأضواء حمراء مسلّطة عليها عدا ذلك كل شيء مظلم، أحس بثقل يجثم على صدره وهو يتابع

المشهد بتوجّس. علت تمتمات غير مفهومة يرددها صدى المكان كتعويذة سحر. وبدأت الفتاة ترتفع في الهواء رويدا رويدا وتعالت عن سطح المكان. حتى إذا توقّف الكلام المبهم وعمّ السّكون هوت بعنف هامدة. شُجّ رأسها وسالت الدّماء من أنفها وفمها. قفز مرتعبا كمن أصابه مسّ. استبدّ به الهلع وثار يركل الأثاث من حوله صائحا: "ابتعدوا ابتعدوا لا أريد الذّهاب!". وأسرع إلى غرفته، رمى كلّ الأغطية أرضا ومزّق دفاتر دراسته، كسر كلّ التّحف والمرآة وخلع أبواب خزانة ملابسه حتى كَلّ من التّعب. وجرح ذراعه متلذّذا بشفرة حلاقة وهو يردّد: "سأقف على حافة الهاوية وأرمي بأمعائي وأطرافي، دعوني.. أكرهكم!". ثم تبوّل على فراشه المغطّى بدمه وانهار.

كان آخر ما يذكره صوت صافرة سيّارة الإسعاف كالمعول يحفر دماغه دون رحمة ووجه المسعف يلمحه من خلف الضباب يتمطّط ثم يلتصق بوجهه ويكتم أنفاسه ليسقط في هاوية مظلمة. رأى نفسه تائها في الصّحراء عطشا مكدودا يشير إلى طيف بعيد بيده أنّه يريد ماء، وبدأ يستفيق. ميّز رائحة المستشفى، مزيج من نفحات الأدوية وحرارة الأجهزة. وحركة تزداد بالقرب منه، أخيرا فتح عينيه بعقل مجهد وجسم منهك. اقتربت منه والدته مستبشرة لكنّه انكفأ على نفسه وتغطّى باللّحاف مردّدا:

"سمّمت كلبي وخبّأت الوحوش في خزانة المطبخ وحاولت إطعامي الدّود ليشرب دمّي، وأوصيت أساتذتي بالتخلّص مني حتى لا أكل طعام العصفور مجددا... هيييه هيّا جِدي عيادة أخرى لك!".

عادت لتطمئن عليه استقبلها وابتسامة عريضة تزيّن وجهه، يرتدي مئزرا أبيض اللّون ونظارات طبيّة، شعره مصفّف بعناية. حاولت معانقته متسائلة عن سرّ تغيره لكنّه صافحها ببرود كأنّه لا يعرفها ثم انتحى جالسا خلف الطّاولة الصّغيرة الموجودة بغرفته وطلب منها الاستلقاء على السّرير وقال: "آسف لطردك في الجلسة الصباحية. أهلا بك مجددا في عيادة فرويد. ما رأيك لو نعيد العلاج من البداية؟ أخبريني كيف بدأ المرض معك هل أغمي عليك أم

الخوف داهمك؟". صفّقت الأمّ وحوقلت وهي ترى المرض قد عصف بولدها حتى خيّل إليه أنه الطبيب المداوي. خبط على الطّاولة بقوّة أفزعتها، وحملق فيها بعينين متّسعتين منهكتين. وتوقّعت نوبة غضب وهلع بينما قهقه عاليا وبدأ يقفز بلا هوادة كأنّه قرد، وبين الفينة والأخرى يرتطم بأثاث الغرفة والحائط ولا يهتمّ لما يصيبه جرّاء ذلك، وأمّه تحاول الإمساك به وتهدئته وهي تولول: "ولدي هبل! ناري عليه! تمكّن بيه جنّ أسود!". حقنته الممرّضة فارتخى واحتملوه إلى السّرير، دثّرته الأمّ جيدا وأسرعت تغادر المكان.

جلست أمام العرّاف بخشوع يشوبه قلق. وسردت على مسامعه القصّة وأطنبت في وصف حالة ابنها السيّئة، وهي ترمقه تستشفّ ردّة فعله إزاء ما حكته، لكنّ العرّاف ظلّ ساكنا كالجبل. ناولها صرّة من الحشائش أمرها بحرقها بعد خلطها بملح خشن في المكان الذّي يوجد به ولدها. وفي غفلة من طاقم المستشفى أشعلت فحما سريع الالتهاب ورمت فيه الخليط وهي تتمتم بسورة الفلق. تصاعد الدّخان كثيفا في الغرفة خانقا أنفاسه فسالت دموعه وصاح من بين سعاله: "أتركوني لن أذهب معكم! دعوا أمعائي سأرميها في الهاوية. أنا حرّ!". بينما عمّت الفوضى كامل المستشفى وصفّارات الإنذار عن الحرائق تئزّ بلا انقطاع.

بُورفِيريَا

استرجع ما قاله الطبيب وهو يتأمّل سحنته المنعكسة والصدمة تخرسه: "لنأخذ حذرنا، لنسيطر على الأعراض الجليّة هذه أوّلا. ها هي اليوم حالة نادرة أمامنا، المرض ليس مجرّد أسطورة أو حكاية شعبية عرضتها الأفلام، قريبا يكون هناك ذئب يتجوّل بيننا". كان يظنّ أنّه يعني بكلامه مريضا آخر. لكن ها هي المرآة تخبره بأنه الذّئب المقصود. تمعّن في سحنته، صورته معكوسة بوضوح، لا مجال للضّبابية والشّكّ، كل ما يراه الآن أكّده تصريح الطّبيب منذ قليل لزميله. أتكون قد أصابته اللّعنة حقا جرّاء عبثه بسيدي ذويب؟ الطّمع لا دواء له، يودي بصاحبه إلى الهاوية. جالت أصابعه على وجهه يتحسّس جلده وملامحه المتغيّرة. عاودته أحداث ما حصل كأنّها وقعت للتوّ.

لن ينسى تلك اللّيلة...

في ليلة مقمرة من ليالي الصّيف، حمل رفشا ومسحاة، لبس في رأسه فردة جورب مطاطيّ أسود اللّون، تسلّل من الأزقّة الخلفيّة للبلدة، وصعد الجبل المتاخم قاصدا زاوية سيدي ذويب. هناك يرقد الوليّ الصّالح وتحت تابوته يستقرّ الكنز كما كان يظنّ. صعد متباطئا حتى لا يتسبّب في تدحرج الحجارة وينكشف أمره. وقف على القمّة يستنشق هواء اللّيل المنعش، وقد تهادى القصر الأثريّ بالقرب شامخا شاهدا على مجد غابر. اقترب من بوابته الكبيرة المنفرجة وأطلّ إلى الدّاخل، غرف كثيرة متلاصقة قلعت أبوابها، وغدت مداخلها كأفواه فاغرة جاهزة لابتلاع كلّ من يقترب، سرت في كلّ بدنه قشعريرة خوف وتوجّس. واصل سيره إلى خلف القصر ناحية الزّاوية. تمكّن الخوف من التّسلّل إلى قلبه وفقد ثبات جأشه، فآخر شيء يتمناه في هذه اللّيلة أن يعترضه جان أو شبح يفترسه، تلا بعض الآيات القرآنية ليثبّت فؤاده.

هذه هي زاوية سيدي ذويب إذا. لطالما سمع بكراماته ومعجزاته، لكنّه لم يكلّف نفسه زيارته ولو مرّة واحدة رغم كثرة الزّيارات والزّردات وخرجات مريديه. تأمّل المقام بقبّته وحوائطه اللاّمعة تحت ضوء القمر البازغ، بناء صغير بابه أخضر مقفل بمزلاج خشبيّ، وبالقرب فسقية للسّبيل. حبس أنفاسه قليلا ثمّ أطلق زفيرا عميقا يشحن شجاعته المتبقية. فتح الباب ووقف بالمدخل، رائحة الثّرى وبقايا نفحات عطور قويّة غزت أنفه وحرّكت أكثر حواسه المستنفرة. بدا المكان معتّقا بتاريخ الأوّلين، أشعل عود ثقاب وعلى نوره جمّع بقايا الشّموع وأنارها، غرفة ضيّقة تعلوها قبّة على حوائط قصيرة يتوسّطها تابوت أخضر. بارتباك قرأ الفاتحة، عاود البسملة وانبرى يعالج ألواح التابوت برفشه، شكر في سرّه السّوس الذّي جعلها تتداعى سريعا. أصابته قشعريرة وهو يلمس بقايا العظام المبعثرة أمامه.

أخذ نفسا، وانحنى ليجمع الرّفات لكنّه قفز صائحا، إذ شعر بضربة شديدة على يديه، حملق في المكان تحت شعاع الشموع الشّاحب فلم ير أحدا.

انتظر قليلا حتى استجمع شتات نفسه، وبسرعة البرق خطف عظم السّاق الأقرب إليه، ورماه خارج القبر، سكن لثوان ثمّ أعاد الكرّة مرارا مع الساق الثّانية وباقي عظام الرّفات. بينما هو يكمل الحفر يريد صندوق الكنز في الأسفل، لمح خيالا ما مرّ سريعا بجانبه، توقّف لثوان ثمّ عاد يكمل الحفر لكنّ أشباحا كثيرة ملأت الغرفة وغطّت ضوء الشّموع. ارتعد خوفا وهو يشاهدها، بلّله عرق بارد ووجف قلبه بشدّة. سمع صفيرا وتعالى ضرب دفوف. من الحائط انبثقوا، رآهم بأمّ عينه، مجموعة من الدّراويش يرتدون قمصانا وعمائم خضراء بينما أجسادهم من شدّة بياضها تكاد تخطف بصره، وكلّ واحد بيده دفّ يضربه، شدّه المنظر ونسي أنّه يقف في القبر، بدأ الدّراويش يدورون حوله. تخطّاهم وحاول الهروب عدّة مرّات غير أنّ ذئبا ضخما يسدّ مدخل الزّاوية منعه من الخروج، تراجع يائسا، غام عقله واختفى كلّ شيء...

فتح عينيه ببطء.

ها قد أفاق وقد انتصف الليل ونور القمر المكتمل يتسلّل من نّافذة غرفته المشرعة. أيقظه مغص شديد ورغبة ملحّة في التبوّل. قام وثقل غريب يجتاح رأسه وأطرافه، حرقة غزت عيونه حجبت عنه الرؤية فسقط أرضا وهو يحاول العودة إلى سريره، حاول طلب النّجدة بصوت عال، لكن لم يصدر منه سوى عواء مبحوح. الألم المبرح ينتشر في كلّ جسده، دقّات قلبه كقرع طبل مجنون يصمّ أذنيه. أحسّ كأنّ المكان غير المكان، وأنّه ينظر إلى عالم بلا منطق من وراء حجاب شفّاف شوّه كلّ الأشكال وأخفى حدود الأشياء فغدت لزجة غارقة في محاط يقيّدها، ويحرّف الكائنات إلى مسوخ هجينة. غشيه الإغماء وهو لا يفتأ يردد: "الذّئب... الذّئب".

كان قد غاب عن الوعي ولم يستيقظ إلا منذ قليل، لا يدري في أيّ ساعة هو ولا في أيّ يوم. كلّ ما يعرفه أنّه في المستشفى وحالته خطرة. لكن ها هي دهشته تتحوّل إلى صدمة والمرآة أمامه تخبره بأنّه هو الذئب المقصود. اقترب من المرآة أكثر، أغمض عينيه وفتحهما مرارا، لعلّ ما كان منعكسا على بلّورها ليس إلاّ سرابا يزول بمجرّد الإغماض. لكنّ نفس الصورة بقيت لم تتغيّر تملؤها الكدمات والاحمرار، كأنّ ذاك الوجه الشّاحب وتلك الملامح المتعبة حفرت حفرا على الزجاج، تخبره صراحة بحقيقة حالته. شعر كثيف يغزو وجهه المقطّب، جلده خشن متجّعد، أنياب حادّة ظهرت من جانبي فمه وشفاهه المتشقّقة، عيناه أصبحتا كجمرتين ملتهبتين..

لقد أصابته لعنة سيدي ذويب ولا مفرّ من هذا العقاب.

أصابه الاختناق. أراد استنشاق هواء نقيّ لكنّ لا رغبة له في الخروج إلى الحديقة، جسده منهك ولا يستطيع الإفراط في الحركة. فتح النّافذة، اندلق ضوء الشّمس يغمره، قفز صائحا وغطّى وجهه يتّقي الألم المحرق جرّاء تعرّضه لأشعّة الشّمس. بسرعة أغلق النّافذة وأسدل السّتار، خرج إلى الرّواق وفكّر في البحث عن الطّبيب.

اعترضه طفل صغير يتجوّل بالقرب، ويسحب معه كيس المصل المغذّي، أوّل ما شاهده هرب صائحا: " ذئب.. إنّه ذئب".

بورفيريا: مرض عضوي شديد الندرة قابل للتوارث ينجم عن اختلال تمثيل الحديد في الجسم. من أعراضه المغص، الشحوب الشديد، بروز الأنياب، استطالة الأظافر، كثافة شعر الوجه، تجعد الجلد، فقدان المريض لعقله إلى درجة العواء حين يرى القمر. حيث تسيطر عليه فكرة أنه ذئب، ولا يستطيع المريض تحمل أشعة الشمس.

لا تحمل أقنوما

بصمت تناول طعامه، ثمّ استلقى مستندا إلى نتوءات المغارة متسوّلا ذاكرته متجاهلا رجفاته العصبيّة. أتى صاحبه يوقظه للصلاة:

- هيّا قم إلى الصلاة!
- لا أصلّي!
- ألا تريد الحور العين؟ هيا، وتجهّز للتدريب!
- خذ بيدي.

قام حالما مع المعلم.

في أعلى الصخور، أصاب أهدافه كاملة بكلّ دقّة. مسح لحيته جذلا وصاحبه يخبره بالتأهّب للسفر. لقد نضج وبإمكانه تحمل المسؤولية الآن.

وقف أمام الباب الكبير متأملا الزّوار والمريدين والقفاف الملآى، ثم انضمّ إلى الزّحام ودخل. تابوت أخضر محاط بسياج مزخرف وحوله جلوس كثر، ومن الغرف الأخرى تناهت همهمات النّساء وضحكات الاطفال المرحة. وزّعت المسابح، رشّ ماء الزّهر، ورمي البخور في الفحم المشتعل. وقف رجل يبدو أنه من القائمين على المقام، مرحّبا بالقدوم مشّجعا إيّاهم على حسن الخشوع في الذكر حبّا في الله وبرّا بالولّي، والبدء سيكون بألفية اسمه اللّطيف جلّ جلاله. رويدا رويدا علا صوت الّذكر الجماعي كموج يخفت ثم يعود ليهدر.

يا لطيف ويا لطيف. يا لطيف ويا لطيف...

تأمّل الجموع الخاشعة من حوله، متعجبا يحرقه الفضول. غزته طمأنينة عذبة واستكانت رجفاته، سرعان ما انضّم مردّدا معهم ذاكرا خاشعا مثلهم. غام عقله متلذذا وتفتّحت حواسه جائعة، أغمض عينيه لعلّ البصيرة ترى. مرّت

صورة والدته منكفئة تنشج، ووالده يصفق الباب خلفه مهتاجا. اتّضحت أمامه الأحداث كشريط سينمائي.

رأى نفسه في المكان المعتاد، تحت سور المدرسة الخلفيّ المتاخم للوادي. جلس يعدم دقائق الزمن، فلا شيء يشغله ولا عمل يملأ وقته. مسح رشح أنفه بكمّ قميصه، وعدّ ما بقي له من مال. انه لا يكفي! بصق أرضا لاعنا القدر السّيئ الذي أجبره على مغادرة مقاعد الدّراسة مبكّرا، والظروف المقيتة التّي جعلته يتنقّل بين أرذل المهن. اكتمل أعضاء الشلّة، كلّهم يمتهنون الانحراف فسمّاهم أهل البلدة بشلّة الضّلال. وسرعان ما استقرّت القوارير الخضراء فارغة تتلّوى بمجرى الوادي، وتعالت قهقهاتهم صرعى. ثم بسطت ورقة على قطعة آجر، سوّي المسحوق الأبيض وقسّم إلى ستّة حصص متساوية كما الكلّ هناك يتساوى في الانحراف والتّهميش. لا فرق.

استنشق بعمق. تفتّحت خلايا جسمه لاستقبال السمّ. غام العقل وتدهورت أقانيم الحياة فيه، كان مسخا لا غير. وجد أمّه بانتظاره، طالعها مترنحا بعيون حمراء زائغة. من بين غيومه وضياعه، رآها امرأة أخرى، فاتنة مغرية ملهب أحمر شفاهها. هجم عليها وهمّ بها لولا أن أعادته لطمة إلى الواقع وصراخ والده الحاد: "أخرج من بيتي يا كلب! أمّك! ألا تستحي أيّها الجانح؟". دفعه والده خارجا وأغلق دونه الباب مدمدما. مضى يتلقفه ظلام الليل حتى التقى المعلم.

في سرّه الشّفيف سأل الله اللّطف به. لأوّل مرّة يتذّكر الله.

سرد كل ما سمع ورأى، في زاوية سيدي "بوجليدة"، على مسامع "المعلّم"، لكم أعجبه إخلاص المريدين وخشوع الذاكرين، أحيت روحه المنسيّة هذه الطرق الصوفية وختم قائلا:

–انه العشق بين الربّ وعبده، لا حدود ترسمها الجنّة والنّار، تنتفي مادية الإنسان وتبقى روحه جوهرا خالصا!

صاح فيه المعلّم:

-أفق يا فتى! هذا كفر! ألا تريد الحور العين؟

واسترسل المعلم عنوة يذكره بما مضى وبما عاهد، حتى يبقى رهن بنانه فليس من صالحه أن يتأثّر بما يرى. بدا كل شيء غامضا أمامه، الجنّة والذكر، "المعلّم" والحور العين. لا شيء يطاله عقله المنقاد، لا بل لا يحمله.

تكررّت زياراته. لم ينس طعم الصلاة مع المريدين في المسجد الملحق بالمقام. بدأت نتوءات روحه تزول مع ترديده للأذكار الصوفية وتلاوته للقرآن. لكنه لم ينس مبايعته للشيخ، منذ زمن اشترى الجنّة، وعَدوه فخَدعوه.

اليوم يوم عيد، والعيد مضاعف. المولد النبوي يوافق يوم الجمعة، النّاس جموع متدافعة يعجّ بهم مقام الوليّ والمسجد. الكلّ يصلي على النبيّ بأنفاس يعطرها البخور وماء الزّهر، خبّأ قفّته في مكان قصيّ وانخرط في تيّار الذكر الجماعيّ ولم يعد يشعر بما حوله إذ انفصلت روحه عن جسده الهزيل المتعب ورفرفت عاليا.

في ركن من المقام، صدر صوت يشبه التكّة، بعيد، ضئيل، ضاع في إيقاع الحناجر الرّتيب:

-يا محمد يا سيّد الثقلين..

ثم فجأة، دوى صوت انفجار رهيب، أحال المكان إلى ركام، ودخان، وأشلاء بشرية.

---

* *الأقنوم هو الجوهر أو الأصل، والمقصود هنا هو العقل والفكر.*

اخت..يال

... وفي غفلة منه، لمعت عيون حمراء خلف الستائر، بينما النّوم يغالبه، عقله ينغلق والأفكار أصبحت عصيّة رغم ذلك لم يستسلم، شدّت أصابعه على القلم بإصرار، لن يقوم إلاّ إذا أنهى ما يكتبه ولو مضى كلّ اللّيل. اكتفى بضوء المصباح الصّغير فوق مكتبه، انهمك يسجّل الأفكار ثم يعود لمراجعتها وتحسين لغتها، وبين الفينة والأخرى كان يسمع همهمات بعيدة، يتوقّف مصيخا إليها ليعرف مصدرها، فتختفي وتذوب في السّواد السّاكن. كان آخر همّه أن يشعر بالخوف. تمطّى في كرسيّه، رمق السّاعة الجدارية بحنق وهي تسكب الوقت في بحر الزّمن بلا هوادة، وواصل الكتابة. لفحت بشرته هبّات هواء خفيفة رغم أنّ النّوافذ مغلقة والسّتائر مسدلة. لم يكن يعنيه أن يقلق إن نسي إحداها مشرعة بل كلّ ما يشغله إنهاء ما يكتبه. رفع رأسه بسرعة ليلمح مرور طيف وسنّ رمح اختفى بسرعة، دعك عينيه ليتأكّد ممّا رأى، أعاد النّظر لا شيء سوى الظّلام يلقي بظلاله. انهمك في العمل وقد تحفزّ لرصد أيّ شيء بالقرب. استشعر من عمقه أنّ أحدا ما يراقبه لا يزيح عينيه عنه، رغم أنّ الخوف ليس من عاداته فقد سرت في بدنه رجفة، توتّرت أصابعه، جمد في كرسّيه بالكاد يعلو نفسه. استرسلت الأفكار والاحتمالات تغزو عقله حتى سيطر عليه القلق والاضطراب، حتما هو جنيّ شقّ [1] يسكن غرفة المكتب وضايقه أن يشاركه اللّيلة ذات المكان. الشّقّ لا يتورع عن افتراس من يقترب منه أو يضايقه. وبما بقي فيه من شجاعة تحامل على نفسه وأشعل النّور. أمسك بمزهريّة وذهب يتفقّد النّوافذ ويرخي السّتائر جيّدا، لم يلحظ شيئا فاطمأن قلبه، وأطفأ النّور مكتفيا بفانوس المكتب فيما غرقت الغرفة في الظّلام من جديد.

سمع وشوشة في أذنيه اقشعرّ لها بدنه، وطفت أمام ناظريه دوائر بيضاء في بحر الظلام ونجوم تبرق تحتها. ثم أطبق جفنيه وهوى على المكتب نائما. تحرّكت السّتائر، ومن خلفها خرجت ثلّة من المخلوقات البشعة تحلّقت حوله بحذر، فلعلّ عملية التّخدير لم تتمّ على أكمل وجه. نكزه أحدهم برأس رمحه يختبر يقظته فلم يصدر منه سوى غمغمة من يرى حلما. وبإشارة منه انتظم الجميع في صفيّن ستّة يقابلهم ستّة كحزب للسّحرة وبقي هو واقفا وراء النائم، تبدو سحنته تحت النّور الشّاحب شيطانا مخيفا. قيّدوه جيّدا إلى الكرسيّ. أخذوا محتويات المكتب واختفوا. عمّ الصّمت، حين استفاق تململ فلم يقدر على الحركة، تأمّل دهشا قيده، الضّوء مسلّط عليه وقد اختفت أشياؤه، وخيالات غير مفهومة زادت اللّيل حلكة. الوضع يشي بالخطر فمن يفعل به هذا يا ترى وقد تأكد بنفسه من خلّو المكان. توجّس خوفا وجَف قلبه بشدّة، تفصّد عرقه وصعد الدّم إلى رأسه. بصوت مرتعش نادى من قام بتقييده فأجابته قهقهات كريهة من الخلف رجّت المكان. أطلق لعنات عشواء وتململ يريد خلاصا. فباغته سنّ الرمح يضغط على كتفه ليهدأ، وكتاب يطفو في الهواء أمامه ولا يسقط. تابعه دهشا حتى إذا أصبح في مستوى وجهه الشّاحب من شدّة خوفه أمره الصّوت: "هيا ابتسم! لتقرأ ما اقترفت يمينك!". صرخ بجنون: "إنّه الشّق انه الشق!". وارتخى مغمى عليه. أحسّ بماء بارد ينضح وجهه، فتح عينيه ببطء، الكتاب لا يزال في الهواء أمامه والأحمر يصبغ غلافه. عاد الصّوت يأمره بالابتسام ليقرأ. تساءل في سرّه كيف يبتسم وهو مختطف، لا يدري أيّ عدوّ يأسره، جاهل أم متعصب طمّاع أم منتقم؟ رمق الكتاب يتأمّله، هذا قفل من الجهة اليمنى وعلى الغلاف وجه كأنّه نحت على لوح أو حجر، خطوط غريبة ترسم ملامح هجينة بين الغضب والفرح. تقوست شفتاه وانعقد حاجباه وخوف ممزوج بالحيرة سكن فؤاده. ماذا يعني كل هذا؟ تحوّل لون الوجه على الغلاف من الأحمر إلى الأسود، ارتجّ بعنف في الهواء مبتعدا. وبحركة مرتدّة صفعه بعنف على وجهه، صاح على إثرها متألّما وقهقهة مجلجلة أخرسته وزادت رعبه.

"خذوه إلى الجحيم!"، صدر الأمر بينما الكرسيّ يعلو به في الهواء، والارتياع يلوح من عينيه التي تكاد تنبثق وتخرج من محجريها. انهارت الخواطر بجنون في عقله حول الجحيم، جحيم دانتي أليغييري، أهوال القيامة ونار زمهرير عليها شداد غلاظ يمسكونه بملاقط حديدية محميّة، اشتمّ رائحة شواء اللّحم الآدميّ، تخيّل الشّقّ يلتهمه في مأدبة دسمة على حدود النّار. كان من الغرابة وهو يكاد يجنّ من الذعر أن يفكر في تلك اللّحظات بوزنه الثّقيل وبطنه المنداحة أمامه. إنّها فوضى من نوع آخر يعيشها الآن عنوة غير تلك التّي حذّر منها البلد [2]. شحب لونه أكثر استحال كجثّة همدت بعد الموت، وأفكاره تتوالد ساخرة منه، تهيّأ له باب الجنّة مغلقا وجياد النّبيّ سليمان الصافنات تمرح في سماء غير السماء، تمنّى لو تأتي لتهرب به بعيدا لكنّه ليس بنبيّ بل كاتب يكتب فينزف حتى يتشكّل ظلّه. يخذله ذهنه وهو يوقع به في مقارنة بين النبيّ والكاتب بينما هو عالق في براثن الخطر. نزل به الكرسيّ أرضا، بلحظة تحرّرت يداه، استقرّ بينهما كتاب. في حين باغته الصوت الكريه يأمره بالقراءة فأجاب مرتعدا: "ما أنا بقارئ ما أنا بقارئ!". سمع وقع أقدام كثيرة بالقرب منه لكنّه لم يرها، غاص قلبه بينما الأمر يأتيه ثانية: "اقرأ قبل أن تفنى الشّيخوخة [3] لا نريد شاهدا آخر!". ألجمه الصّمت وهو يتذكّر ما سرده في تلك الرّواية، وحرارة تنبعث من الكتاب أحمت كفيّه، حتى فجأة اشتعل وأصبح كتلة من اللّهب، رماه مذعورا والقهقهات الشيطانية تسخر منه.

"خذوه إلى كرسيّ الإعدام!"، وفي الحال امتدّت أيد كثيرة حملته إلى ركن آخر. ارتجف كعصفور مبلّل ولسانه ما انفكّ يردّد الشّهادة ولا ينجح في قولها كاملة. ألبسوه صدرية وقبّعة تربطها خيوط رقيقة تمتدّ لتختفي في الظّلام. رجّات خفيفة تهزّه وتضغط على رأسه، أحسّ بأعصابه تتوتّر تكاد تنهار ونسق تنفّسه يتصاعد ثم يضيق. شعُر بأنه يتحول إلى أشخاص عدّة في نفس الوقت، خيط رفيع من الخوف وصل فيما بينها فغدت شخصا واحدا. كثيرا ما كتب عن الخوف الذي يتلبّس البلد لكنه لم يهتمّ له وهو يجول بدراجته، ها هو الآن يجمّد عروقه ويسحب روحه، وقد باغته ألم لويزا [3] وهي تنتفض تحت الوحش

الذي يغتصبها وتطلب منه الرحمة وهي تراه يستعدّ لنحرها، توغّل عميقا فيه روع مبروك السّلطاني [4] وهو مرميّا مستسلما لقيده، وجلاّده يستنطقه ثم يذبحه من الوريد إلى الوريد ليقطع الرّأس ويضعه على صدر الجثّة. انتفض مختنقا ورشا [5] لا تتنفّس يضيق صدرها من قلّة الهواء، فتختنق وتتيبّس أطرافها تدريجيّا ويتحوّل لونها إلى الأزرق ورغوة تملأ فمها ثم تستسلم للموت..."

قاطعه جليسه حين وصل إلى هذا المستوى من القراءة: "هل هذا اختراع؟ كتاب يجعلك ترتديه لتشعر بما عاشه الأبطال؟". أغلق دفتره بينما طبقة حزن تغزو بشرته السمراء ووجهه يختزل وطنا كبيرا من الماء إلى الماء كأنه فصل خامس انضاف للفصول ليزيد تركيبة عناصرها المعقّدة وقال: "هناك الكثير في عالم النشر، كالقضايا التي نكتبها تماما، كل يوم عراء جديد!". ودّع رفيقه وسلّم على زملائه، مضى يسرع في طريق العودة إلى البيت على درّاجته الهوائيّة ملتويا مع أزقّة المدينة القديمة. ينتظره الكثير من العمل ليتقدم في كتابة روايته الجديدة فهو حريص على صدورها في أقرب الآجال. حتى إذا وصل أمام داره ولم يفطن إلى الفوهتين اللّتين تترصّدانه انهال عليه الرّصاص مخترقا رأسه وصدره.... ثلاث عشرة طلقة أردته على الفور أمام الملأ.

---

1 من الجن هيئته نصف إنسان بنصف وجه ويد وساق واحدة.

2 و 3 إشارة إلى روايتي الأديب العراقي علاء المشذوب فوضى الوطن وشيخوخة بغداد الذي قتل يوم 2 فيفري 2019

4 هي لويزا غيسبرسن سائحة دنماركية قتلت في المغرب مع صديقتها يوم 17 مارس 2018

5 مبروك السلطاني الراعي الذي ذبحه إرهابيون في نوفمبر 2015

6 رشا الحسن أخصائية تجميل عراقية تم اغتيالها في أوت 2018 في سلسلة اغتيالات استهدفت نجمات وخبيرات

أرجيريا

– فان غوغ ليس وحده من يكره لعب الظّل والضّوء –

وقف أمام النافذة يتأمل المنظر الذي يقابله. كل شيء في الخارج يبدو على غير طبيعته، أشعّة الشّمس فضّية لامعة كمعدن بارد، الأشجار زرقاء والعشب تحتها استحال ليلكيّ اللّون، وفي نقطة الأفق البعيد تجمعت غمامة خضراء مظلمة تبتلع شّحوب السماء وقد اتشحت الأصفر. أنساق الألم أخرجته من شروده بينما أظافره تكشط أماكن الالتهابات التي تغزو جلده حتى أدمتها، وذكّرته أنه لم يتناول دواءه. انسحب من مكانه متأوها، وضع قرصين على لسانه، وأبعد قضبان الفضّة الموصولة إلى بطّارية، عن الإناء. تردّد في تجرّع الماء منه اذ تذكّر جاره ينظر إليه في استغراب حين اعترضه في الدّرج وسأله ان كان بخير أم أنه فقط يموّه بملامحه. كان يدرك أنّ هناك مضاعفات خطيرة لهذا الافراط في شرب ماء الفضّة بالرّغم من أنّه لم يشعر بأيّ من أعراضها، لربّما أحدها هذا الجنون الذّي يجعل همهمات مجهولة تتسرّب إلى مسامعه، من يدري؟ اشتدّ الألم، سرى كاللّهب في جلده فحفّزه على عبّ ما في الإناء بنفس واحد. مصمص شفتيه وفرد كتابا أمام وجهه يلتهم صفحاته بنهم.

قطع صمته الرّتيب رنين ملحّ لا ينقطع، جعله يرفع رأسه عن الكتاب ويمسح بنظراته المكان فإذا به يضيق مرة وتتسع مساحته مرة أخرى، اكتست حوائطه لونا أزرق يميل إلى السّواد وبين الفينة والأخرى تلمع منه نجوم فضية، لمَ يبدو كلّ شيء غريب ويراه على غير هيئته المعتادة؟ إلحاح الجرس لم يعطه فرصة لمواصلة التّفكير في ذلك بل أثار حنقه، لن يفتح الباب لهذا المتطفّل. واصل القراءة كأنّه لا يسمع شيئا. سرعان ما خبط الكتاب على المنضدة أمامه

متأففا، عدّل نظاراته الطبيّة، رفع كمي قميصه إلى الأعلى كمن يتحفّز للعراك، استرق النّظر من عدسة الباب، لم ير أحدا في الخارج، فعدل عن فتحه واستدار عائدا إلى وسط الشّقة. لم يكد يخطو خطوتين حتى ملأ الرّنين المكان ثانية. قفز بخّفة، وعاود النّظر فقابله الرّواق فارغا. كست وجهه سحنة من غضب، شحذ لسانه بأقذر السّباب، بحركة حانقة أشرع الباب، فوجد نفسه بإزاء طفل لا يتعدّى طوله نصف المتر، تهيّأ له أنّ لونه أزرق، يحمل مغلّفا كبير الحجم لم يظهر منه سوى القدمين واليدين الصغيرتين، وأطلّت عيناه وجلتين تطالعان وجهه الغاضب. رمى الصّغير إليه الطّرد وجرى مبتعدا بينما بقي هو في العتبة يستمع إلى صدى القفزات حتّى ذاب في سكون المبنى الأصّمّ. أغلق الباب بقدمه، وضع المغلّف على المنضدة، ربّت عليه متسائلا ومستكشفا. غالب تردّده وتوجسّه ومزّق الغلاف.

سلّة من الخشب البنيّ المنحوت يتوسّطها عشّ ممهّد، استقرّت داخله ثلاث بيضات زرقاء، من فرط دقّة نحتها يظنّ النّاظر إليها أنّها حقيقيّة. دار حولها، أمعن النّظر من كلّ الزّوايا الممكنة، كل شيء فيها يتغيّر ويتبدّى في غرابة، الشّكل، الألوان، الأحجام والمواقع، لم تظهر له أيّة إشارة إلى رسالة سرّية أو رأس خيط يكشف له صاحبها يمكن أن يعثر عليه فيزول تيهه. هناك في أسفلها اكتشف كلمة محفورة بدقّة "أرجيريا *". خمّن أنّها عنوان المنحوتة، غلى الدّم في عروقه من شدّة الغيظ، أمسكها بكلتا يديه يعبث بها صارخا: "بيض أزرق؟ إنّها لسّخرية..". لعن مرسِلَها السّاحر وجالبها الجريء، فكلّ ما فعلاه أنّهما دلقا عليه كيسا من الهمّ هو في غنى عنه .

الصّمت والوقت يسيلان ببطء مع تكتكات السّاعة الحائطية، فلا صخب ولا شيء يسرّع ايقاعه. مهلا... مهلا. استرعى انتباهه تغيّر صوت العقارب، لم يعد رقيقا قاطعا كدأبه، شيء ما يخالط حدّته. ها قد عادت تلك الهمهمات جليّة تراقص ايقاع الزّمن وتذيب سكون المكان. أصاخ السّمع يستجلي كنهها فخفتت وتلاشت، وما إن عاود القراءة حتّى استرسلت مجددا. زمّ شفتيه وهو

يسمعها بوضوح، تظاهر بالانغماس في الكتاب فارتفعت أكثر، بدت كأنها تشاكسه اذ يرفع رأسه تتوقف. جال بطرفه خلسة في المكان حوله، شعر بشيء من الخوف وهو يرى الجدران الزرقاء تكاد تنطبق عليه، ضاق نفسه فاستلقى على ظهره يعبّ الهواء لرئتيه، حرّك ذراعه يتوسّدها فأسقط التّحفة الخشبيّة. هبّ واقفا ليضعها في أحد رفوف مكتبته، كبّلته الدهشة مكانه وهو يكتشف وجود قلنسوّة بيضاء صغيرة على كلّ بيضة. هزّ التّحفة يمنة فيسرة ثم وضعها على الرّف فارتفعت الهمهمات وكأنّها معترضة على فعله، بدت قريبة جدّا لكن فكره المشوّش بأطوار يومه الغريب لم يساعده على كشف مصدرها.

أرهف السّمع وهو يتتبّع الهمهمات، عاد إلى حيث انطلق بالقرب من المنحوتة السّحرية، أصابه الذّهول إذ لاحظ البيضات الزرقاء قد أفقست كبيض حقيقي، لتخرج منها فراخ، لا! لا! ليست بفراخ بل مخلوقات صغيرة بحجم اليد بشرتها زرقاء، عيونها مستديرة لامعة، لباسها أبيض وعلى رأس كلّ واحد منها قلنسوة تلك التّي رآها قبلا.. فغر فاه وهو يستحضر اسمها. آآآه! إنّها سنافر، انبرت تتقافز داخل السّلة... ماذا؟ جحظت عيناه. لقد نبتت فيها فطر حمراء وصفراء وزرقاء، أسفلها أبواب صغيرة تفضي إلى داخلها. عجائبية المشهد دفعته إلى القاء التّحيّة عليها بصوت خفيض، لكنّ السّنافر كانت منشغلة بالتّقافز والرّقص، راوغته وهو يبسط كفه ليمسك بها، افترض أنها خشب بثّ فيه النّحات روحا سحرية فأضحت شياطين صغيرة. هذا الخاطر أعاده مباشرة إلى رأس الحكاية وألحّ عليه السؤال: من يكون صاحبها؟ وخزات الألم أوقفت إزميل التّفكير عن الحفر في عقله فانشغل بتوزيع المرهم على الأماكن الملتهبة، وعاود شرب مقدار من ماء الفضّة عسى أن تتوقّف شكّات الوجع. على حين غرة انفجر الفانوس فوقه، وغرق في الظلام.

ما كاد يثبّت الفانوس مكانه بالسّقف فينير، حتّى قفزت إليه السّنافر الثلاثة تتسلّقه وتستقرّ على كتفه. عانقته بشوق سنين من الغياب. المفاجأة جمّدته

وشلّت أطرافه، بصره فقط امتدّ ناحية السّلّة فإذ به يرى جمهرة من السّنافر الزرقاء انحشرت حشرا داخلها وخارجها على الرّف. عيونها الصغيرة اللامعة ترقبه وتتابع حركة الثلاثة على كتفه.

أسرع إلى هاتفه وفتح البثّ المباشر على موقع التّواصل الاجتماعي فيسبوك. من هناك أطلّ على العالم. ركّز الكاميرا على التّحفة الخشبيّة وقرّب الصّورة حتى تظهر السّنافر الصّغيرة التي يكتظّ بها الرّفّ، وعرّج إلى وجهه وكتفه حيث تعانقه بوداعة الثلاثة الآخرين. سيلقي تحيّة صغيرة على متابعي صفحته ويعرفّهم على ضيوفه. لكن السنافر لم تظهر إلاّ له، وحسب أنّ متابعيه يرونها مثله. قابلته صورته وحيدا تنعكس في الهاتف. هاله ما لاحظ، شعر رأسه وذقنه قد ابيضّا، وانقلب لون بشرة وجهه ورقبته إلى الأزرق. تفقّد أطرافه وجلا فرأى أنّها أقلّ زرقة، بدا فعلا بابا سنفور. دهشته وارتباكه أنسياه قطع البث المباشر الذّي نقل كلّ انفعالاته إلى الأرجاء.

تداعت الصّور بسرعة من ذاكرته، جاره الذّي اعترضه في الدرج يسأله عن تمويه ملامحه، الصّيحات الّطفولية حوله والسبّابات الكثيرة تشير إليه: "بابا سنفور! بابا سنفور!". البائع يسلمه طلبه ساخرا: "فانوس أزرق وتكتمل الصّورة، قلنسوة وجوارب حمراء... بابا سنفور شخصيّا!".

مادت به الأرض، والجدران أمامه ترتفع وتزداد قتامةُ زرقتها وتتداخل فيما بينها كعجينة صلصال، اختفت المساحات وضاق صدره. سقط أرضا، قاوم الإغماء، وتنفّس بعمق. رويدا رويدا عاد المكان لسيرته الأولى، زحف نحو الأريكة ليستلقي فاصطدم رأسه بالباب. تلفت حوله يستجلي الأمر.

وجد نفسه في ممر طويل بالقرب منه مغلف كبير، وجذاذة صغيرة ملصقة عليه كتبت فيها جملة وتحتها توقيع: "أنا مثلك أكره لعب الضوء والظّلّ. فان غوخ". لم يفهم شيئا منها، فقط انصاع لرغبة ملحّة بداخله أن يدقّ جرس الباب الذي يجلس أمامه.

وقف على رؤوس أصابعه يتطاول إلى الزرّ. وبتصميم ضغطه، فتعالى الرّنين يقطع الصمت الرتيب...

** أرجيريا أو التفضض: حالة مرضية تحدث نتيجة التعرض المزمن لعنصر الفضة ومن العلامات المميزة لهذه المرض هو لون جلد المريض حيث يكون مائلا للزرقة أو الأزرق المخضر ويكون عاما أو موضعيا.*

تتويجات

قصة شارون الجائزة الأولى بمسابقة نادي القصة بالوردية تونس 2017

قصة آتروبوس الجائزة الاولى في القصة مسابقة ملتقى أقلام واعدة بصفاقس 2018

قصة ماريونيت الجائزة الأولى في مسابقة ملتقى أدباء الوطن القبلي بنابل 2018

قصة رق الجائزة الاولى في مسابقة ملتقى تطاوين للمطالعة 2019

قصة التحول الجائزة الثانية في مسابقة مهرجان ابراهيم بنسلطان الوطني للأدباء الشبان بالرديف قفصة 2018

قصة البرزخ الجائزة الثانية في مسابقة ملتقى الأدباء العصاميين بسوسة 2019

قصة اطلالة على العالم الحديث الجائزة الثانية في مسابقة ملتقى وطن للآداب ببني خداش مدنين 2019

قصة مشرط غير صحي الجائزة الثالثة في مسابقة ملتقى أدب التجريب بالنفيضة سوسة 2019

قصة اختيال جائزة لجنة التحكيم بملتقى القصة القصيرة بمساكن سوسة 2019

قصة شيزوفرينيا الجائزة الاولى مسابقة ملتقى القيروان للابداع الادبي 2019

قصة لوسيفر الجائزة الاولى مسابقة منتدى علي الدوعاجي للأدب والفكر 2020

قصة أرجيريا جائزة لجنة التحكيم ملتقى ابن منظور للأدباء الشبان بقفصة 2021

الفهرس

كل الحقوق محفوظة..... 2

لوسيفر * 7

شارون..... 11

المهجوس..... 15

ثرثرة الظّلال 18

ثمنا للحريّة والكرامة 22

هيراكليس* الرئيس 25

قضبان للصّدفة 28

عرائس القصر 31

رِقٌّ..... 35

الأقلّ حظّا 38

كأنّه السّراب 42

مآزيُونـيتْ 46

الأخـطل..... 50

القونة*..... 55

البرزخ..... 59

آتروبوس* 63

إطلالة على العالم الحديث..... 66

مشرط غير صحي 71
التّحوّل..... 74
لكنّه مازوشيّ..... 77
شيزوفرينيا 81
بُورْفِيرْيَا 84
لا يحمل أقنوما 88
اخت..يال 91
أرجيريا 95
تتويجات 101
الفهرس 103